مذكرات وشهادات

دلال البزري

دفاتر الحرب الأهلية اللبنانية
(١٩٧٥-١٩٩٠)



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

دفاتر الحرب الأهلية اللبنانية
(1990-1975)

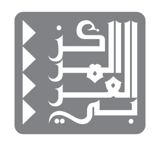
أُنجز هذا البحث في إطار «برنامج المنح البحثية»

في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

دفاتر الحرب الأهلية اللبنانية

(1990-1975)

دلال البزري



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

البزري، دلال

دفاتر الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990)/دلال البزري.

216 ص. ؛ 22 سم. - (سلسلة مذكرات وشهادات)

يشتمل على فهرس عام.

ISBN 978-614-445-143-4

1. لبنان - تاريخ - الحرب الأهلية، 1975-1990. 2. لبنان - تاريخ - القرن 20. 3. لبنان - أحوال سياسية - القرن 20. 4. لبنان - تاريخ - التدخل الإسرائيلي، 1982-1984. 5. النزاع العربي الإسرائيلي - لبنان. 6. جنبلاط، كمال، 1917-1977. 7. رجال الدولة - لبنان - تراجم. 8. الاغتيال - لبنان - القرن 20. أ. العنوان. ب. السلسلة.

956.92044

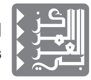
العنوان بالإنكليزية

Journals of the Lebanese Civil War (1975-1990)

by Dalal Bizri

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشـر



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطـر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961

البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org

الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، حزيران/يونيو 2017

المحتويات

مقدمة

سوف تجد دائمًا سببًا للكتابة عن الحرب. إنها تقرر حيوات الناس. وإذا كانت هذه الحرب أهلية، فهي ترفع من قبضة القدر، توسّعه، تُمْعن في ابتداع ألوانه. بعد اثنين وأربعين عامًا على اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية (1975)، وسبعة وعشرين عامًا على توقفها (1990)... عندما تسأل نفسك: ما الذي أوصلني إلى «هنا»؟ إلى «هذا»؟ سوف تجد أن فصلًا، هامشيًا ربما، من فصول الحرب الأهلية هو الذي أوثق يديك الاثنتين، أو أيادي أهلك، وقادك إلى حيث أنت الآن.

المشاهد التي عمرت بها بيروت بدءًا من الأعوام الأولى للثورة السورية ضد نظام الأسد، أيقظت هذه التساؤلات الوجودية. عندما أمشي في شوارع بيروت، وأشاهد تلك المجموعات الحزينة من السوريات المرْهقات، يعْبرن الأرصفة الضيقة بخَفر، يسحبن أطفالهن من أكمامهم... ومعهن عدد أقل من الرجال، يتوهون، أو يطوفون، لا يعرفون غير وجهة الشمس... ثم تتوالى المشاهد الأخرى، في البرّ والبحر، في العِباب والسيول... أقول لنفسي إنه كان يمكنني أن أكون واحدة من أولئك الضائعين، الخاسرين...

فأدخل في المقارنة بين الحرب الأهلية اللبنانية التي عشتها، وبين تلك الحرب في سورية. أقارن فلا أجد مجالًا: كانت الحرب

اللبنانية مجرّد نزهة شاقة، قياسًا إلى الحرب السورية. كيف؟ أشكّ بما أتذكره، ربما عواطفي السياسية، ربما خيانة ذاكرتي، ربما المسافة بين عمري وعمر الحرب، التي تكاد تبلغ الآن نصف القرن. ربما ثلاثتها سحبت الخيط الدراماتيكي عن الحرب، فطعّمت مرارة ذكرياتها بحنين عبثي، قوامه أوهام مرغوبة. «ربما...»، أكرر لنفسي.

كي أقطع بعض الشك، كان لا بد لي من تذكُّر ما عشته أنا شخصيًا في تلك الحرب الأهلية، الذي يتصل بفصل من فصولها، ثم تدوينه قبل أن يُمحى نهائيًا من ذاكرتي. وأجعل منه دفاتر، كل دفتر يروي واحدة من حكايات الحرب هذه: بتفاصيلها الصغيرة، ويومياتها، وعادياتها. وكل دفتر يترك للقارئ ترَف الذهاب بعيدًا، في تخيّل الدينامية الوجودية التي تطلقها حكايته على مصير أصحابها، أو شخصياتها.

ليست هذه الدفاتر «سعيدة»، كما كانت عليه السنوات التي سبقت الحرب؛ وقد رويتها في الجزء الأول من هذه المرحلة في كتابي «سنوات السعادة الثورية» (دار التنوير، 2015). ليست «سعيدة»، تلك الدفاتر، أقول، لكن مأساويتها محدودة، كما كانت الحرب الأهلية اللبنانية محدودة بجغرافيتها، لم تتجاوز الحدود اللبنانية؛ عكس الحرب السورية، ذات القعر اللانهائي، التي أشعلت شظاياها نيرانًا كانت هامدة، قريبًا منها وبعيدًا عنها.

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا منحة تلقيتها من المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. وهي منحة سمحت لي بإنجازه من دون آلام شديدة أو تعثرات. فالشكر الجزيل للمركز.

دلال البزري

بيروت 8 أيار/مايو 2017

الرصاصات الأولى (1975)

أوصلتُ هيلين، أمسِ، إلى المتحف، بعد أن «علقتْ» في منطقتنا بحيّ «حارة حريك». فالطريق إلى منزلها في الأشرفية باتت مغلقةً؛ بسبب الاشتباكات والتفجيرات المتنقلة التي فصلت تلقائيًا بين المنطقة «المسلمة» التي أقطن فيها، والمنطقة «المسيحية» التي تسكن فيها هيلين؛ «بيروت الغربية» و«بيروت الشرقية».

في خلال الأيام الخمسة الأولى من هذه الحرب، كنت أستضيف هيلين في منزلي. أوصل ابني إلى سريره، أحكي له قصةً قصيرةً، حتى ينام، ثم أسهر مع هيلين حتى آخر الليل. نستمع إلى «الراديو»، نُغلقه، ثم نفتحه عند كل انفجار. نسترخي ونتوتر. نقول إن الأمر لن يدوم؛ لأن اليمين اللبناني أضعفُ من أن يتغلب على المقاومة الفلسطينية وحلفائها من الحركة الوطنية، وكنا نرى أن النظام الطائفي الفاشل سوف يخرج - لا محالة - من هذه المعارك مهزومًا.

عندما يحين النهار التالي، نشتري الجرائد ونتّصل بالرفيق المسؤول، لعلّه يحيطنا علمًا بما يجري، وبالمهمات المطلوبة من الرفاق والرفيقات، وبالتوقعات السياسية والسيناريوات المحتملة، في النقاط الساخنة، والنقاط الأخرى الممكن عبورها، وبأعداد الضحايا، بـ «البوسطة» نفسها التي أشعلت هذه النيران كلها،

وبإمكان حدوث هدنة، وبمدى جدّية قرارات وقف إطلاق النار المتتالية.

خمسة أيام، يخرج الوقت من الزمان ويصبح طليقًا، لا حساب في هدره ولا دراية غير ما يتعلّق بالحياة أو الموت: هل أوصل هيلين إلى المتحف لتعود إلى أهلها في الأشرفية؟ هل أنتظر انقشاعًا ما؟ في اليوم الخامس، تمرّ ساعات هدوء طويلة نسبيًا أغامر فيها لتوصيل هيلين إلى المتحف. أحمل ابني معي، أضعه عند جدته القريبة، ثم أندفع بالسيارة مع هيلين، وأتّكل على حظي. في الطريق، ما من نفس بشرية، ولا سيارات. لم يكن إلا ثمة نهاية شتاء قارس، ورائحة بارود عابقة تغمر زهر الليمون، المتضائل على كلّ حال. لا شيء يحصل على الطريق، صمت الحرب البارد فحسب، عتْمة الوحدة وأنت على هذه الطريق الموحشة في عزّ النهار.

أتوقف عند المتحف، وأخشى أن أتابع؛ في غفلة واحدة تحوّلت هذه القطعة من بيروت إلى منطقة «أخرى»، كأنها سقطت سهوًا؛ هل يعقل؟ تلك الأحياء الضيقة التي جلتُ فيها حيًّا حيًّا وأنا أوزّع منشورات المنظمة خلال السنوات السابقة. تلك الأحياء التي درست فيها البكالوريا وراجعتُ فيها الواجبات والفروض مع تلامذة آخرين؛ ومع هيلين وماري، في الجامعة حيث كنا نجتمع، بذريعة الدرس، فلا ندرس ولا نحفظ، بل نُمضي الوقت ضحكًا على ضحك. بيروت، المدينة الواحدة ... يتسرب إليّ قليل من الشعور بأنها ليست كذلك، لا يمكن أن تكون كذلك. لا أحتاج إلى الشجاعة كي أواصل طريقي نحو أعماق الأشرفية، نحو طلعة الجعيتاوي، بل أحتاج إلى الأمل. يأتيني أملٌ أنه لن تصيبني رصاصة ولا شظية، فأنطلق مسرعة من المتحف نحو الجعيتاوي، أؤمّن هيلين، ثمّ أعود بالسرعة نفسها إلى حارة حريك.

بعد مرور أيام على هذه التفجيرات الأولى، تبدو الحياة كأنها عادت إلى طبيعتها. فترجع هيلين إلى الكلية، عابرةً المتحف، ومعها ماري، ونستأنف اللقاء بأصحابنا ورفاقنا. لكن الجو لا يبدو طبيعيًا في الكلية. في السنوات القليلة السابقة، كانت الانتخابات الطلابية تجري بين يمين ويسار. وكانت الكتلة اليسارية تضمّنا - نحن أعضاء منظمة العمل الشيوعي - والحزب الشيوعي اللبناني «التحريفي» دائمًا، وباقي الأحزاب «التقدمية» الأخرى من «بعث» و«قومي سوري» و«تقدمي اشتراكي». في جبهة اليمين ينافسنا حزب «الكتائب» و«الأحرار» مع «حركة الوعي»، تلك الكتلة «الليبرالية» صاحبة الخط «اليميني المعتدل». كنّا عندما يخسر اليمينيون الانتخابات، نحتفل بفوزنا من دون أي قلق، نرقص ونغني ونملأ أروقة الكلية صخبًا.

في المؤتمرات التي كان يعقدها الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة في مبنى كلية الحقوق، كانت النقاشات تحتدم، وغالبًا ما تخرج عن نطاقها الطلابي ومطالب طلاب الجامعة اللبنانية الكثيرة، وتتحوّل إلى نقاشات سياسية حادّة، تدور كلّها حول حقّ سلاح المقاومة الفلسطينية وضرورة انخراط لبنان في الحرب ضدّ إسرائيل لتحرير فلسطين كلها، وتغيير نظامه الطائفي. وفي نهاية إحدى جلسات المؤتمر، والدنيا قد صارت ليلًا، أخرج إلى موقف السيارات، لأستقل سيارتي وأعود إلى البيت، وإذا بخمسة من الطلاب الكتائبيين يطوّقونني بعد أن اقتربت من سيارتي، ويهمّون بتلقيني درسًا بدنيًا قاسيًا بسبب الكلام الخطِر الذي قلته تأييدًا للمقاومة الفلسطينية. لا يمهلونني أكثر من دقيقة للتفكير في كيفية حماية نفسي، في كيفية الصراخ لطلب النجدة، حتى يظهر مسؤولهم

الذي أعرفه من المؤتمر الطلابي نفسه، وهو طويل القامة شديد البنيان، يُفهمهم بنظرة واحدة أن ينصرفوا فورًا، وأن يدعوني في حال سبيلي. إنّه الرفيق مارون، أكثر الوجوه الكتائبية دماسةً.

بعد عودتنا إلى الكلية من جولة التفجيرات، لم يَعُد المناخ مثلما كان؛ إذ تدلّ التظاهرة الطلابية الأخيرة التي جرت قبل هذه الجولة على تسمم هذا المناخ، كأنها تُنذر بشؤم الجولات الحربية. تنطلق من الأشرفية، من جامعة القديس يوسف، تظاهرة فريدة من نوعها. ففي الصفّ الأمامي للتظاهرة، تجد الكتلة المتضامنة مع المقاومة الفلسطينية والنابذة للدولة الطائفية، تناقضها تمامًا كتلة أخرى تأتيها من الخلف، شعاراتها ليست طلابيةً، بل هي سياسية بحتة. المتظاهرون اليساريون الذين وُجدوا في آخر التظاهرة اليسارية مصادفةً يقولون لنا إنّ طلاب اليمين، في الكتلة الخلفية، لم يكتفوا بالرد علينا بشعارات مضادة، بل كانوا يشتموننا أيضًا، ويهددوننا، وكان بعضهم يحمل السكاكين، ويرفعها في وجوهنا.

على كلّ حال، تنتهي هذه التظاهرة بعنف يمارسه الأمن الداخلي تجاهنا لدى وصولنا إلى ساحة البرج. كانوا ينتظروننا، وهم متأهبون وكان قرار قيادتهم أن يمنعونا من بلوغ البرلمان حيث كنّا ننوي إيصال أصواتنا الثورية إلى نواب الأمة. عند نقطة الاصطدام، يحصل هرج ومرج كبيران، ولا أجد نفسي إلا في معركة مع رجال الشرطة، وأنّني صعدتُ عنوةً إلى سيارة «الجيب» الخاصة بالشرطة حيث سيقتادونني إلى السجن. هناك، يضعونني في زنزانة حاشدة بالنساء، كنّ كلّهن إمّا عاملات بارات أو بغايا من «حيّ المتنبي» القريب من مبنى الدرك الواقع في ساحة الشهداء. نظرات النساء عدائية. واضح لهنّ أنني لست منهنّ. أمضي ليلةً واحدةً في هذا السجن من دون

أن أنام. لم تكن هناك أسرّة، ولا أغطية، ولا حمّام أيضًا. في اليوم التالي ينقلونني إلى نظارة العدلية، ويضعونني مع امرأة مظهرها يدلّ على أنها من صنف أرقى من بغايا أَمسِ. أسألها: ماذا تفعلين هنا؟ تجيب: «الله يستر عليك يا بنتي متل ما أنت جاي لهون!» (كما أنت أتيت إلى هنا). أقول لها إنني هنا بسبب تظاهرة أَمسِ. كان وقْع التظاهرة عليها قويًّا، وكانت متعاطفةً مع المتظاهرين الذين «أكلوا قتلة» في أثنائها (ضُرِبوا). وبما أنني واحدة منهم، فهي تضمني إلى صدرها، وتقبّلني، وتطلب من الحارس أن يأتيني بصندوق عصير «بونجوس»، وعُلَب سجائر «مارلبورو»، وقطعِ خمسٍ أو ستٍّ من شوكولاتة «كرانش».

أخرج من السجن بكفالة مالية، مئة ليرة لبنانية، يدفعها الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة، لكنّ الأمور لم تعُد كما كانت في الكلية. فبعد هذه التظاهرة، ترتسم خطوط حمراء بيننا وبين أحزاب اليمين، نحمّلها مسؤولية القمع الذي وقع تجاه تظاهرتنا الأخيرة. ثمّ تحصل حادثة أخرى تعمّق تلك الخطوط: مجهولون يطلقون النار على ممثّل «الحزب السوري القومي الاجتماعي» في الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة، ولا نشكّ لحظةً واحدةً في أنّ اليمين هو الذي فعلها. نصدر بيانًا رسميًا باسم أحزابنا، نتّهم فيه حزبهم صراحةً بمحاولة الاغتيال. هل تعود كلّيتنا إلى ما كانت عليه قبل هذه التفجيرات؟

كلية التربية
الجنة الضائعة (1973-1978)

في صيف 1973، أبحث عن جامعة تدفع لي منحةً، بعد الجامعة اليسوعية التي صارت خارج إمكاناتي، إثر زواجي وإنجابي ابني. أسأل الرفيقة أميرة، فتشير عليّ بكلية التربية، الجامعة اللبنانية: «عليكِ أن تجتازي المباراة. العدد المطلوب من الناجحين قليل. والمنافسة شديدة». ماذا أختار من التخصصات؟ لا أتردّد. سوف أختار الأدب الفرنسي. فبعد عامين من الانقطاع عن الجامعة، والانشغال بالزواج والإنجاب، نسيتُ المواد العلمية. لكنني بقيت أقرأ الروايات. فهَلمّ إلى الآداب الفرنسية. هكذا أشارك في مباراة الدخول إلى كلية التربية، أنظر إلى العدد الكبير من المتقدمين، فلا أتوقع لنفسي النجاح، بل أنسى بعد أيام شأن هذه الكلية الذهبية. تصرخ في وجهي الرفيقة أميرة بنبأ فوزي في المباراة، بعدما توقفت سيارتي في نصف الطريق تحت سماء ماطرة: «مبروك..!». أسألها: علامَ؟ فتجيب: «على نجاحك في كلية التربية».

هكذا، أصبح صاحبة حظٍّ جميل، بعد أن يصير لقبي «طالبة في كلية التربية». ما العظيم في ذلك؟ إنّ هذه الكلية، وهي واحدة من مشاريع الدولة اللبنانية في خمسينيات القرن الماضي، جامعة مجانية لأبناء الشعب اللبناني كله، تموّلها الدولة بسخاء، وتؤسس فروعها

المختلفة. إنّها كلية لا تكتفي بالمجانية، بل تضيف إليها «منحةً» ماليةً، تكون مئتَي ليرة لبنانية في البداية، وتصبح مئتين وخمسين ليرةً بعد عامين من الدخول إليها. هذا المبلغ الذي لا يشتري اليوم أكثر من علبة علْكة صناعة محلّية، كان في تلك الفترة يغطّي إيجار بيت بمبلغ 75 ليرةً لبنانيةً، ومؤونة شهر بأكمله بمبلغ 75 ليرةً لبنانيةً أيضًا، لتبقى خمسون ليرةً، أو مئة ليرة بعد ذلك، حرّة التصريف.

مقابل هذا المبلغ المالي الضخم، على الطالب - بعد نجاحه في المباراة - أن يحضر الدروس كلّها، وإلا حُرِم من هذه المنحة. ومثل باقي كليات الجامعة اللبنانية الأخرى، تجمع كلية التربية طلابًا من أنحاء لبنان كلها، من كلّ طوائفه، ومن أبعد مناطقه وأقربها. لكنّ الفرق أنّ إلزامية حضور الدروس، على خلاف الكليات الأخرى، تولّد صلات وطيدةً ومناخًا عابقًا بالمفاجآت، وحالات نادرة من الوصال، ونوعًا من «العصبية» خاصًّا بطلاب هذه الكلية. كانت كلية التربية مثل عائلة ثانية؛ عائلة تختارها من بين الذين يروقونك، يضحكونك، يلهمونك، يشغلون عقلك بالمعادلات. صداقات وغراميات تُبنى في ذلك المكان وتبقى حيةً حتى بعد عقود.

تقع كلية التربية قرب مبنى اليونسكو، على تلة مرتفعة نسبيًا تطلّ على البحر. إذا بلغتَها من المدينة، تنزل قليلًا نحوها مثل مَن يقصد البحر الذي يتراءى له قريبًا شاسعًا، والذي تهبّ منه الرياح والروائح على امتداد السنة، كأنّ من اختار هذه التلة كان يحلم بالنوم فوق رياح البحر. تحيط بهذه الكلية أشجار «الكينا» التي تغطي، أيضًا، مبنى اليونسكو ذا المعمار الكولونيالي القديم بشوارعه المرسومة، وأرصفته، وطرقه الضيقة الشبيهة بطرق القرى الحضارية. وعندما تدخل إلى الكلية نفسها، أو بالأحرى «تنزل» إليها، تغمرك نسمات

رائحتها مزيج من البحر وأشجار الكينا. تقف الأسوار العالية أمام جموحها، تزيّن خفوتها تلك المقاعد الخشبية المنتشرة هنا وهناك على امتداد الممرّ والفواصل. في أوّل النزول فضاء رحب، على يمينه المكتبة، وقاعة الجمعيات العامة للطلاب التي تتحوّل كلّ يوم إثنين إلى قاعة لعرض الأفلام الأوروبية الطليعية؛ مثل السويدي إنغمار برغمان، والإسباني لويس بونويل، والأميركي بوب فوس، مع الرائعة ليزا مينيلي في «كباريه»، فضلًا عن الإيطاليين باولو بازوليني، وبرناردو برتولوتشي، وإتيري سكولا. في متوسط «النزْلة» تقع أوسع مساحة صُمّمت لِلَعب كرة السلة والكرة الطائرة. ثمّ يكون الاتجاه نزولًا نحو الكافتيريا، أو طلوعًا نحو الصفوف.

ربما تكون هذه الصفوف آخر همومنا، مع أنها هي سبب وجودنا في هذا المكان. المفاجأة الكبيرة هي الكافتيريا، الواقعة أسفل مبنى الكلية؛ لذلك، عندما تمطر السماء حبالًا، تغرق الكافتيريا؛ إذ تتجمع فيها المياه غير المصروفة كلها. فيضع أسعد، المشرف على الكافتيريا، أخشابًا كانت مخصّصةً للتوضيب، يقْلبها على وجهها، فترتفع سنتيمترات قليلة عن المياه، وتتحوّل بالنسبة إلينا إلى جزر نقفز من إحداها إلى الأخرى، حتى بلوغنا الكافتيريا التي يكون أسعد قد «شفط» مياهها كلها، ووضع بينها وبين الخارج حاجزًا لتبقى ناشفةً نظيفةً. وأسعد هو روح الكافتيريا. هو حافظ الأسرار كلها، وهو طباخ «شاطر»، عنده الطبق اليومي، خصوصًا «الفاصولياء» الحمراء التي يجيدها، وهو يرى جميع الطالبات جميلات جديرات بالغزل والكلام المعسول، «يشغّل» على الـ «جوك بوكس»، صندوق الموسيقى، أجمل أسطوانات فيروز: «حبيتك بالصيف حبيتك بالشتي»، و«ليالي الشمال الحزينة»، و«نسّم علينا الهوا».

بعد أسعد، كان عليّ هو الشخصية الأخرى القوية، وهو صبي يبيعنا علكة «الشيكلتس». لم يكن شحاذًا يمرّ من هنا، ويتابع طريقه على الطرقات. تمنحه شُقرته، وعيناه الخضراوان، وابتسامته الدائمة، ولسانه الحلو، وضعيةً خاصةً بيننا. يجلس أحيانًا على طاولتنا أو طاولة غيرنا، يتجول بين الطاولات، يحمل المراسيل الغرامية، يقضي نهاره بيننا، بين مزحة وضحكة ولقطة مصورة، ويتركنا بعد الظهر إلى «المدرسة»، كما يقول، ونحن نصدّقه؛ نظرًا إلى تقدمه في قراءة أسماء الأغاني التي نطلب منه أن يختارها لنا على علبة الجوك بوكس.

في الكافتيريا، تحصل أهمّ الأمور: الاجتماعات مع الذين نتصل بهم لإدخالهم إلى منظمتنا، والتشاور مع المسؤول الحزبي في شأن كتابة الشعارات السياسية أو المطلبية، والنقاشات الفكرية مع خصومنا من أحزاب اليمين، أو الثقافية حول كتاب جديد، أو قصيدة، أو استقبال طلاب من كليات أخرى لهم شأنهم بيننا. ملوك الكافتيريا هم هؤلاء المناضلون الكبار الذين ارتقوا في أحزابهم، يساريةً كانت أم يمينيةً، وقرروا، بأمرٍ حزبي، أن يرسبوا طوعًا في السنة الرابعة، ليبقوا في الكلية، ويسهلوا بذلك قيامهم بمهمات قيادية حزبية. هؤلاء هم أصحاب الجاذبية الأقوى بين الطالبات. هم أزيار نساء، وبعضهم «مزواج». يكفي أن يبتسم أحدهم لطالبة، حتى «تقع». سحرهم أقوى من مؤهلاتهم العلمية أو الجمالية، وبعضهم قبيح. هالاتهم ساطعة، لكن لم تكن جميع الطالبات مشدودات إليهم، لأنهنّ كنّ يهوين الصنف الثاني من الطلاب: أولئك الذين تتلوى أجسادهم اللّينة على وقع كرة «البينغ بونغ». ورتّب أسعد طاولتين، في عمق مدخل الكافتيريا؛ إذ يمكن لاعب

البينغ بونغ الرشيق الوسيم أن يلعب تحت نظر طالبة محدّدة جالسة على الطاولة... أو الطالبات الداخلات كلهنَّ. وأكثر ما «يسحر» في حركتهم المتواصلة نظرتهم، ووجهة عيونهم؛ فهم الذين يُفترض أنهم «مركِّزون» على الكرة وحدود الطاولة، يختلسون النظر إلى إحدى الجالسات من بين الطالبات المفتونات، أو يقع رمْش أحدهم عليها. منهم مَن كان فائق الوسامة، وعضوًا في أحد الأحزاب النشيطة. وفي أغلب الأحيان، يبدو لنا أنّ الحزب الشيوعي جنّد ذوِي الوسامة منهم للاتصال بالطالبات بغية إدخالهن إلى الحزب، اعتمادًا على جاذبيتهم. أحدهم، نسميه «دون جوان الحزب»، بملامحه الدقيقة وسمرته البرونزية، يدخل إلى الكافتيريا مثل العاصفة، برياح عاتية من الفتنة. يكفي أن ينظر إلى العموم من دون التركيز على طالبة بعينها. يتناول المضرب والكرة من أحد مخابئ أسعد، خلف «الكونتوار»، ويتجه صوب طاولة البينغ بونغ، غامزًا بعينه نحو جهة أحد منافسيه الرياضيين، فتقوم النظرات كلها عن اهتمامٍ، وتتمتع دقائق بمشهد الدون جوان يقفز مثل سنجاب أسود حول الطاولة.

كان حصاد هذا الصنف من الطلاب دائمًا وافرًا. لكن الصيد لا يقتصر عليه، أو على الطالب القائد، فهناك صنف ثالث، هم أولئك الشعراء أو النقاد الذين أبرزوا موهبتهم من أولى سنوات دخولهم إلى الكلية. وعُرف بعضهم عن طريق المهرجانات الشعرية التي تقيمها الكلية، ومن خلال الشراكة مع باقي الكليات أحيانًا. وهم يصعدون درجات سريعةً في فلك الشباب أصحاب الحظوظ، وكان أبرزهم شعراء الجنوب، ومن بعدهم شعراء الشمال، ثمّ البقاع، وتكاد بيروت تخلو منهم. أحدهم يجمع الوسامة الخارقة والموهبة الشعرية، بل الشخصية الشعرية؛ مجنون، عيناه سوداوان لوزيتان،

شعره طويل، يقفز فوق السور، يمشي على أطرافه، يصرخ بأسراره في الممارّ المزدحمة بالطلاب، يقع كغيره في غرام طالبة من بيننا، يريد أن يهرب بها إلى اللامكان، أن يطير بها، أن يختفي معها من الوجود.

ثلاثة أصناف من الطلاب، تتوزّع بينهم قدرات الغزل والجاذبية والإقناع، لكن من دون عدل حقيقي. فالسياسيون «المخضرمون» يحوزون أعلى نسبة من إعجاب أكثر الطالبات تمتعًا بالقدرات والجمال والمواهب. يليهم «المثقفون»، من الشعراء والنقاد والقُصّاص، وفي أدنى اللائحة الدونجوانيون الذين «يتمخْترون» مثل النساء ويتلوَّون ويرتبون هندامهم بدقة، كأنهم تعبوا في اكتسابها.

الطالبات، وهنّ الأكثرية، يملكن حرية الاختيار من بين هذه «النماذج». وما من طالبة إلّا وتنال حقّها من الغزل والنظرات الذابلة. الطلاب صيادون، صنارتهم من ذهب، تحبك الروايات الغرامية، تغذي الجلسات الرومنطيقية على المقاعد الخشبية، تحوّل الكافتيريا إلى ملعب مستتر للألحان والعيون الملتمعة والهمس، وبعض اللمس لليدين.

أغلب الفئة الاجتماعية الموسرة من الطالبات. كثيرًا ما أتساءل عن سبب هذا «التفاوت الطبقي» بين الطلاب والطالبات. أتخيّل أنّ العائلة التي ترسل بناتها إلى كلية التربية لإكمال تعليمهن، ترسل في المقابل أبناءها إلى الخارج للتخصص في إحدى المهن الحرة؛ لذلك يسهل أن تجد في العائلة الواحدة بنات يتخرجن من كلية التربية أو أيّ كلية أخرى مجانية في الجامعة اللبنانية. في حين يتخرّج الفتيان أطباء أو مهندسين في أوروبا أو أميركا. هذا ما هو مفهوم، ولو

ضمنيًا، بين الطلاب والطالبات. وهكذا، إنّ الإيقاع بطالبة هو مثل «ارتقاء طبقي». أمّا بالنسبة إلى الطالبة، فهو ارتقاء من نوع آخر تعرفه الطالبة المثقفة جيدًا عندما تنجذب إلى السياسي من بين الطلاب، أو الشاعر، أو القاصّ، بل حتى الدون جوان، خصوصًا إذا كان حزبيًا. «ارتقاء» ثقافي فكري سياسي، ينتهي في أغلب الأحيان بخطبة مديدة أحيانًا، فزواج. في كلية التربية ربما كانت الزيجات المختلطة دينيًا، أو طبقيًا، أو مناطقيًا هي الأعلى من بين الزيجات الحاصلة في كليات أو جامعات أخرى، بل حتى في أحزاب علمانية أو تقدمية.

(يمكن المقارنة، الآن، من خلال هذا «الميزان» القديم بين حالة عروض فائضة ومتنوعة يقدمها الرجل إلى المرأة، أو الطالب إلى الطالبة، والاختيار الواسع الذي تطرحه هذه العروض أمام الطالبة، بين هذا الميزان غير العادل - سابقًا - الذي يسود السوق الغرامية قبل أربعة عقود ونيف، والسوق الأخرى الراهنة، غير العادلة أيضًا، القائمة بين رجال ممتنعين، مستنْكفين، أو غائبين، أو مضْربين، أو مهاجرين، أو غير مطابقين للأوصاف... مقابل نساء يضججن بالأنوثة والغنج والأناقة، ويبالغن في اقتناء ما يعتقدن أنّه وسائل «إيقاع»... من دون جدوى، عبثًا... لا يمكن إلّا ملاحظة التغيير الكبير، في ميزان العلاقة بين الجنسين، في هذا المجال خصوصًا؛ إذ تحوّلت المرأة إلى صائدة للصياد، أو للذي كان في أيام غابرة يُعدّ صيادًا مطلوبًا).

كلية التربية
الجنة الضائعة (1973-1978)
(تتمة)

في الكافتيريا أيضًا، يجري العمل الحزبي بأنشطته اليومية. وتجري اتصالات مع الجمهور والأصدقاء والمرشحين لدخول منظمتنا. كان الرفيق بطرس هو مندوبنا إلى اللجنة المركزية، وكنّا نتشاور معه يوميًا، لكنّ ذلك كان من دون بهجة. لا أعرف كيف «وصل» إلى هذه الرتبة، ولا أفهم ذلك. ربما ليغطي تمثيلًا طائفيًا، أو مناطقيًا، أو مهنيًا، يندر وجود «مندوبين» عنه في منظمتنا. أجده ثقيلًا، قاتمًا، قليل الكلام عند اللزوم، كثير الكلام عند التطرق إلى مواهبه وشخصيته الفذة. أحاول أن «أتحسن» في أساليبي النضالية الطلابية، وفي لغتي العربية. أقترح شعارات، فيردّها إليّ من دون أن يشرح سبب ردّها. كان ثمّة لَغط بيني وبينه. ربما كان في وضعية المربّي التي يتخذها لنفسه، بامتيازات المربّين كلها، لكن من دون تربية حقيقية. مرات كثيرة أسأله فيها عن سبب رفضه شعارًا أقترحه، أو نشاطًا نقدّمه إلى الكلية، فيكون جوابه دائمًا بالرفض، من دون تفسير، ولا حتى تبرير. ينتابني حنقٌ منه، ولا أعرف كيف أردّ عليه.

في أحد الأيام وجدت طريقي إلى ذلك. رحْتُ أطلب من

الرفيق جوزيف أن يكتب لي شعارات طلابيةً من النوع الذي يعرفه جيدًا، هو الصحافي المتمرّس والمتمكّن من اللغة العربية. مزاج جوزيف في الشقاوة الطفولية أعرفه جيدًا. يوافق على الطلب، على أنْ يبقى ذلك سرًا بيننا. هكذا، أحضر إلى الكلية في اليوم التالي، ومعي شعارات لم أكتبها بنفسي، أنا «الضعيفة في العربية»، أعرضها على الرفيق بطرس باعتزاز ظاهري كأنني أنا التي كتبتها؛ ذلك أنّني بصدد امتحان حُسن قراءة الرفيق بطرس الشعارات المقترحة، ومدى سيطرة الأفكار الجاهزة على عقله. وكانت النتيجة هي تلك التي خشيتها: أن يكون الرفيق بطرس على قدر من الاستهتار تجاه الذين يقعون في رتبة حزبية أدنى من رتبته. ينظر إلى ما نسَخْته على ورقة كبيرة من شعارات بثقة مدروسة تغطي الخديعة... ينظر إلى الورقة سريعًا، كأنه يلمحها، ثمّ يومئ بحركة بيده اليمنى، بأنْ لا قيمة إطلاقًا لهذا الكلام كله. على الرغم من أنّني أتوقع ردّه هذا، وأنّني كنت أتمنى أن يكون الأمر بعكس ذلك، فإذا بالحيرة تصيبني: هل أتشفّى منه وأكشف «كذبتي» المتمثّلة في أنّني لستُ أنا التي كتبت الشعارات، وأنّ من كتبها هو الرفيق جوزيف؛ وبذلك أخلف بوعدي؟ هل أصمت وأعود أدراجي كأنّ شيئًا لم يكن، أو بالأحرى كأنّ الذي حصل اليوم شبيه بما حصل البارحة وقبلها؛ فأتلذذ بمرارة المظلومين؟ هل أختار تأجيل الكشف عن الحقيقة؟ أيأتي يوم أعترف فيه للرفيق بطرس بأنه كان غبيًا ومتسرّعًا، عندما رمى شعاراتي جانبًا بنوع من الاستهانة، معتقدًا أنّني أنا التي كتبتها؟

يأتي يوم آخر، يُردّ الرفيق بطرس إلى عقباه من دون تدخل شخصيٍّ مني. في السنة الثانية، وبعد أن نجح تحالف اليسار في الانتخابات الطلابية في السنة التي سبقتها، كنّا نحضّر أنفسنا داخل

المنظمة لخوض انتخاباتها الجديدة. وفي اجتماع يضم الرفاق المسؤولين كلهم عن العمل في الكلية، تكون هناك نقطة واحدة على جدول الأعمال: من سترشح منظمتنا لهذه الانتخابات؟ يقلقني السؤال. فأنا ترشحت في العام الماضي، وحصلت على أعلى نسبة من الأصوات. حتى الكتائبيين صوّتوا لي. ليس حبًا ليساريّتي، بل ربما لأنني أمّ لصبي صغير، أُحضره معي أحيانًا إلى الكلية... لماذا يسألون إذًا؟ لا ينتظر الرفيق بطرس جوابًا عن سؤاله. هو يتبرع بـ «الاقتراح» بأن يكون الرفيق سليم هو المرشح عن منظمتنا على لائحة مرشحي اليسار. أصمت تمامًا. لا أحتج ولا أفسّر. أريد الاستماع إلى آراء باقي الرفاق.

يدور نقاش، فيه أخذٌ وردٌّ، ينتهي بكلمة حاسمة ينطق بها الرفيق خضر. يقول عنّي إنّني «أساوي رفيقين» من حيث الشعبية والنشاط والحضور؛ ولذلك من واجبي، وليس من حقّي فحسب، أن أترشح بدلًا من الرفيق سليم. فهذا من البديهيات. كلمة الرفيق خضر تحسم اسم المرشح عن منظمتنا، وتقيم في عقلي، بل تحكم سلوكي لاحقًا، ولا تحكم مسألة الترشح للانتخابات الطلابية فحسب؛ إذ عليّ، أينما حلَلْتُ، أن أكون بمقدار رجلين، كي أتساوى مع رجل من بين الرجال. لا أعرف الآن إلى أيّ مدًى حققتُ هذه المعادلة، أو نجحت في أن أكون بمنزلة رجلين، أو أنني سعدت بهذا النجاح، أو بقيت مهتمةً به... لكنّني متأكدة من أنّ جملة الرفيق خضر كانت، في ذلك الوقت، تشحنني بطاقة إضافية، على الرغم من سلبيتها، أو ربما بسببها. هكذا «أنزل» في الانتخابات الطلابية للسنة الثانية، وأفوز فيها، لكن بنسبة أقلّ من السنة الأولى. هل سبب ذلك أنّ ابني كبر؟ أم هل فعلت الخصومات السياسية فعلها؟

تسمح شروط الانتساب إلى كلية التربية بخلق مناخ تنافسي أبعد من الحدود التي تعرفها الكليات أو الجامعات الأخرى. المكتبة بالنسبة إلينا هي معبدنا اليومي. لقد كان أمين سرّها صديق الجميع؛ لأنّ كلّ طالب يريد الحصول على آخر كتاب، أو أهمّ كتاب. يأتي التنافس في قراءة الكتب في مرتبة بعد التغازل والسياسة؛ إنّه النشاط المحرِّك لخلايانا كلها. نتنافس في القراءة، ليس بين بعضنا فحسب، بل بيننا وبين أساتذتنا أيضًا. كم مرةً تباهينا أمامهم بأنهم لم يقرأوا الكتاب الفلاني، ولم يخلصوا إلى النتيجة النقدية نفسها التي خلص إليها رولان بارت، أو غاستون باشلار، أو لوسيان غولدمان، أو برونو بلتهايم. إضافةً إلى ما نقرأه في منظمتنا ونناقشه في حلقات ضيقة. كنّا نتسلح بلويس ألتوسير، أو وليام رايخ، أو إسحاق دويتشر، أو آرتور كوستلر، أو هربرت ماركوز، لنقوى في وجه الشيوعيين التحريفيين الذين لم يواكبوا العصر الماركسي الجديد المنفتح على اجتهادات ورؤًى مغايرة للعصر السوفياتي المتجمّد في مكانه؛ لذلك نفرح كثيرًا، في السنة الرابعة، عندما نعلم أنّ البروفسور واصف، المشهور بعمق ثقافته ووسعها ومنهجيتها، هو الذي سوف يعلّمنا مادة «التحليل النفسي»، أي الفرويدية (نسبةً إلى سيغموند فرويد). لكن البروفسور واصف لا يلبّي طموحنا في الارتقاء معه إلى مستوى أعلى من المعرفة. جبلّةٌ من العقد والتعقيدات، كلُّها شريرة، كلُّها تتقصد الإيذاء النفسي؛ هكذا هو البروفسور واصف.

بنظرة تهكمية تدلّ على أنّنا جهلاء، كان يحاضر عن الفرويدية، كما لو كان يحاضر عن أصول القواعد في اللغة الصينية. لا نفهمه، ولا نهابه، وكنّا نضحك في السرّ. لكن عندما يريد أن يوقعنا في الفخ ويطرح علينا سؤالًا يكون بمنزلة امتحان لمعرفة مدى استيعابنا

الفرويدية، نتلعثم، ونُصاب بالخرَس والخجل. أنحن الذين قرأنا فرويد وما بعد الفرويدية، لا نستطيع الإجابة عن سؤال فرويدي «لغير المتخصصين»!؟ لا أحد من بيننا يجيب عن السؤال الغامض. والجميع ينتظر الجواب عن لسان البروفسور. ويأتي هذا الجواب الشامت بجهلنا، كالغيث؛ ذلك أنّه ينطق بإجابة أقلّ من المتوسّطة نكون نعرف أكثر منها. نحتجّ عليه، نقول له إنّنا نعرف هذا الذي يقوله، لكننا لم نفهم السؤال. نعرف الجواب ولا نفهم السؤال؛ تلك هي خلاصة سيرتنا مع هذا الأستاذ المخيِّب لآمالنا الثقافية.

قبل نهاية السنة، تتكرر الواقعة نفسها بأسئلتها المبهمة وأجوبتها الواضحة، فنكرر الاحتجاج. ويتوعدنا البروفسور بطرح أسئلة علينا خارج المنهاج في امتحانات آخر السنة. ولا يخلّ البروفسور بتوعّده؛ إذ يطرح أسئلةً خارج المنهاج فعلًا. فيكون إضرابٌ، كما اتفقنا، وتوقفٌ عن الامتحان وتعقيدات أخرى تُفضي إلى «نتيجة» واحدة، أو حلّ واحد يقرّره البروفسور: مهما كانت إجابة الجميع، سينال كلّ طالب علامة «12» من عشرين في امتحان مادة «التحليل النفسي». أمّا أنا التي أقود الإضراب المتفق عليه في حال تنفيذ البروفسور تهديده، فإنّني أُحرم من السنة الرابعة، ويكون عليّ إعادتها، عقوبةً على قيادتي هذا الاضراب. وينتهي الأمر بتدخّل، من أحد الوزراء، يقضي عدم نجاحي في الدورة الأولى - على الرغم من نجاحي فيها - ويسمح لي بأن أُمتحن في الدورة الثانية، من دون أن أضيّع سنةً بأكملها.

«الاستقرار» في مركز الشياح (1975)

القرارات الحزبية لا تتأخر. منظمتنا الشيوعية مع الحزب الشيوعي، ومع باقي الأحزاب المناصرة للقضية الفلسطينية، جميع هؤلاء يتفقون على «برنامج»، على التنسيق، وعلى تسمية أنفسهم «الحركة الوطنية اللبنانية» بقيادة كمال جنبلاط. ومن بين القرارات التي تتخذها الحركة، احتلال المدارس الرسمية الخالية من الطلاب، بسبب المعارك، وتحويلها إلى مراكز حزبية. وكان من نصيب منظمتنا في بيروت المشاركة مع الحزب الشيوعي اللبناني في احتلال مدرسة الشياح التكميلية. ننسى «تحريفية» الحزب كلها، وخلافاتنا كلها معه، وحساسياتنا، ونستعد لخوض هذه التجربة المشتركة بكامل تفاصيلها.

يعني «احتلال» المدرسة الانتقال إلى العيش فيها؛ كما هو الشأن في البيت. العائلة كلها تشترك في هذا الاحتلال: أنا وابني وزوجي، نحمل «ملاحفنا» و«فرشنا» و«أغراض» يومياتنا الصغيرة، ونستقر في مدرسة الشياح، وكلّنا إيمان بأننا، إذا قمنا بالمهمات الحزبية الموكولة إلينا على الوجه المطلوب، فمن المؤكّد أنّنا سوف ننتصر على اليمين اللبناني، ونحوّل بلادنا إلى قاعدة صلبة للانطلاق منها إلى تحرير فلسطين. تلك هي الأفكار التي تحرّكنا نحن الرفاق.

عندما نستقر في المدرسة، تُوَّزع بيننا المهمات. وتكون القسمة البديهية بيننا على أساس رفاق ورفيقات. فالرفيقات يتولين مهمات الطبخ اليومي، وتنظيف الغرف المختلفة، والسهر على غرفة «المكتبة» المخصصة للقراءة، والأناشيد، والأغاني الثورية لفيروز ومرسيل خليفة. إضافةً إلى ذلك، تجمع الرفيقات الكتب وأشرطة الـ «كاسيت» من جميع الرفاق الذين يأتون متبرعين بها من مجموعاتهم الخاصة. وبطبيعة الحال، كانت هناك الاجتماعات اليومية مع الرفاق الآخرين، علاوةً على اقتسام مهمات أخرى؛ مثل التدريب على إطلاق النار في الطابق السفلي من المدرسة، وكانت في أيام السلم قاعةٌ لاحتفالات نهاية العام والعروض المسرحية، ومثل مساعدة الرفاق في توزيع قوارير الغاز على سكان الشياح، بعدما اختفت هذه القوارير من الأسواق تمامًا.

كان وضوح مهمات الرفيقات وتنوعها، لا يجاريه ما يشبهه عند الرفاق. فهؤلاء يجتمعون كثيرًا، يناقشون، يتداولون «آخر الأخبار»، ينظّمون، يقترحون، يستقبلون الزوار من الرفاق القادة أو الحلفاء، أو من الصحافيين، يخرجون من المركز ويعودون، من دون مهمات محددة أو صريحة موكلة إليهم. لكن مهماتنا لا تقتصر على «الداخل»؛ أي في المدرسة - المركز. ففي إثر تأمين الغداء، في «طناجر» ضخمة، بكميات تلبّي شهية خمسين رفيقًا ورفيقةً، بعد أن نكون أفرغنا مهارتنا كلها في تعديل النار، ورشّ الملح، وفرم الجزر والبصل، لم نكن نرتاح، بل كنّا نتابع نهارنا، وننفّذ المهمات «الخارجية»؛ إذ علينا جذب عدد من أطفال الحي من الشياح وعين الرمانة، وجمْعهم في أحد بيوت الرفاق الواقعة فيه، وتوزيع الأوراق وأقلام التلوين عليهم، وحثّهم على رسم المآسي التي تتعرض لها

منطقتهم، من تفجيرات وقنصٍ وخطوط تماسّ، وأصداء معارك الفنادق المحتدمة، المقبلة من قلب الأسواق التجارية، من قلب البلد. وكان هدفنا من ذلك هو التخفيف من آثار الحرب في نفوسهم؛ بجعلهم يعبّرون عن هذه الآثار، مع تنشئتهم - في الآن نفسه - على أفكارنا الثورية.

كانت هناك مهمة ثانية «خارجية» مستوحاة من تجربة المخيمات الفلسطينية، هي إنشاء مستوصف شعبي، نقدّم فيه العلاج والدواء مجانًا إلى أهالي الحي. وكان مشروع هذا المستوصف يحتاج إلى دعم وجدناه في منظمة فرنسية مخصّصة للصحة وداعمة لليسار اللبناني الجذري الذي تمثله منظمتنا. أقوم بمهمة ربط العلاقة بأعضاء هذه المنظمة الفرنسيين؛ بالنّظر إلى إجادتي الفرنسية. أحضرهم إلى الشقة التي استولينا عليها، وأشرح لهم معركتنا مع اليمين المتطرف، ودعمنا القضية الفلسطينية، وأتفق معهم على مواعيد لاحقة، يأتون معها بما يلزمنا من دواء، خصوصًا المراهم والمحاليل التي تداوي الجروح البسيطة. لكنّ المهمة التي تستحوذ على مجمل أوقات بعد الظهر، هي الندوات الشعبية التي نستدعي فيها نساء الأحياء الفرعية، بشوارعها المختلفة، ونشرح لهنّ سبب وجودنا في المدرسة، وماذا نفعل فيها، وما نهدف إليه من وراء وقوفنا ضدّ أبناء عين الرمانة، الحيّ المقابل للشياح.

قبل الخروج من المركز علينا التنبّه إلى أمرين؛ هندامنا والقناص. كان الأمر بالنسبة إلى القناص بسيطًا. فالأهالي يضعون في وجهه، أينما تخيّلوا وقوع نظره، حاجبًا مرتفعًا من الكارتون السميك، أو باصًا مهترئًا، عند كلّ فتحة شارع مكشوفة على حيّ عين الرمانة المقابل. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فإنّنا نعبر الشوارع عبر البيوت من

خلال ثغرة في أحد حيطانها. لكنّ هذا الحذر من القناص لم يكن ينجح دائمًا؛ إذ لم يمنعه ذلك من إصابة الرفيقة سهيلة في رأسها. كانت سهيلة تردّد، في أوقاتنا المرحة أنها لو أصيبت يومًا بطلقة قناص، فليت رصاصته تنال من كتفها وحدها، لتضع الضمادات البيضاء وتربطها بيدها، ويأتي بعد ذلك حبيبها مشفقًا، مغرمًا أكثر ممّا كان، فتشفى هي، ويكون حبهما قد صار أقوى وأقوى... وتهنأ معه بقية حياتها. كانت الرفيقة سهيلة هي أولى شهيداتنا.

أمّا الهندام، فهو قصة أخرى. عند استقرارنا في مدرسة الشياح، بلغَتنا إشاعات عنّا تصف حياة «السكر والمجون التي يعيشها الشيوعيون» في تلك المدرسة؛ إذ حوّلوها إلى «كرْخانة»... وتصف الإشاعات الشيوعيات - خصوصًا - بأنهنّ صاحبات عادات جنسية منحرفة، يكشفن أكثر ممّا يسترن. وتزيد الإشاعات على ذلك بأنّ «الحمل غير الشرعي» حصل في ذلك المركز... إلى ما هنالك من روايات، كانت تصلنا في السابق، قبل الحرب. لكنّ الإشاعات التي أصابتنا من قبلُ لم تكن بمثل هذه «الغلاظة»، ولم تُلزمنا، مرّةً، بتغيير صورتنا.

في مركز الشياح الأمر مختلف. فنحن لسنا في الجامعة، ولا في التظاهرة، أو المقهى، بل في حيّ شعبي نحتاج إلى احتضان أهله لنا؛ لذلك، على الرفيقات الانتباه إلى ما يلبسْنه، خصوصًا في «الخارج»: تنانير أو فساتين طويلة بأكمام طويلة، وأعناق مغطاة، وبنطلونات عريضة فضفاضة. وبعد «الحسن صبي» عشيّة الحرب، إثر الاسترخاء على سجيتي في هندامي، معتقدةً أنّه من صنعي، ها هو مركز الشياح يضعني على خُطى الهندام الرهباني الذي لن أتخلص منه تمامًا.

المهم أنّ الندوات الشعبية هي أكثر الأنشطة كثافةً. فلا يمرّ يوم واحد من دون أن تكون هناك ندوة في الشارع الفلاني. وأحيانًا تكون هناك ندوتان، أو ثلاث ندوات. تجتمع ما بين عشر وخمس عشرة امرأة تقريبًا، ونحضر إليهنّ بصفتنا نتكلم باسم منظمتنا، لكنّ المطلوب منّا أن نعرض برنامج الحركة الوطنية اللبنانية عرضًا تفصيليًّا، وأن نُفهمه للحاضرات، ونجيب عن أسئلتهن، ونحضّ على تأييده ودعمه. وكانت في برنامج الحركة الوطنية اثنتا عشرة نقطةً، تخص كلّها لبنان ونظامه الطائفي. وفي مقدمة هذه النقاط «إلغاء الطائفية السياسية» حتى بلوغ «العلمنة الكاملة للنظام السياسي»، ثمّ تفاصيل عن كيفية الانتقال في النواحي المختلفة، لكنّنا لا نخوض فيها إلا إذا كان النقاش معمّقًا؛ كأن تتوسّله إحدى المستمعات، أو تثير حوله تساؤلات. وخارج هذا البرنامج، كنّا نستفيض ذمًّا تجاه الطائفية السياسية، ونشدّد على مساوئها وعيوبها ونقاط ضعفها؛ فنخرج قليلًا عن النص الرسمي، ونُبحر في الربط بين إسقاط نظامنا السياسي، وتبنّي العلمنة، وبين تأييد المقاومة الفلسطينية وحمايتها من اليمين الرجعي الهادف إلى إنهاء وجودها المسلح. ولم يكن هذا البرنامج غافلًا عن «دعم المقاومة اللبنانية والفلسطينية ضدّ إسرائيل». لكن يبدو من الطبيعي لجميع المساهمين فيه - بسبب تعدد أطراف «الحركة الوطنية» التي صاغته - أن يضع كلّ منهم فيه توقيعه الخاص، أو أن يتصرف فيه، كما تُمليه «مصلحته الحزبية». وإذا علمنا أنّ هذه الحركة الوطنية تضمّ - إضافةً إلى منظمتنا - الحزب الشيوعي، والحزب التقدمي الاشتراكي، والحزب القومي السوري، والبعثَين السوري والعراقي، والناصريّين، و«المرابطون»... فعلينا أن نتصور الآن إلى أيّ حدّ كانت «حصة» كلّ منّا ضئيلةً ومحصورةً، في وقت كنّا نعيشها على أنها هي العالم، وأنّها فاتحته ومنتهاه.

الحياة الحزبية
داخل مركز الشياح (1975)

كان اجتماع الخلية الموكلة تنفيذ المهمات الحزبية من أمتع المهمات في المركز. وكان الرفاق والرفيقات الذين يشكّلونها لا يختلفون كثيرًا عن أولئك الذين كانوا في الخلايا السابقة قبل اندلاع الحرب. صحيح أنّ كُثرًا منهم تركوا منظمتنا خوفًا من السلاح نفسه؛ إذ كانت «بشائره» تطلّ عليهم باشتباكات محدودة في المخيمات الفلسطينية بين الجيش اللبناني والتنظيمات الفلسطينية المختلفة، وعاد بعضهم الآخر إلى المناطق المسيحية، خوفًا من الخطف «على الهوية»، أو التهجير القسري، أو الاغتيال، أو الضغوط العائلية، لكنّ عددًا آخر منهم ترك لبنان، في هجرة نهائية أخفتت صوتهم وصورتهم، أو هجرة موقتة يعودون منها منقلبين أو ثابتين على «الخط»، بحسب ما عاشه كلّ منهم، وبحسب ما رآه.

المهم أنّ الخلية الحاليّة التي أنشأها الرفاق المسؤولون عند اندلاع الحرب مكوّنة من رفاق جُدد أتعرّف إلى بعضهم، أوّل مرة، في المركز. كنت من بعيد، في التظاهرات والمهرجانات، لا ألمح سوى الرفيقين زينب ومراد. والآن نحن الثلاثة في خلية واحدة، إضافةً إلى الرفيق مرتضى والرفيقة وردة، ومسؤولنا الرفيق أشرف. بالنسبة إلينا نحن الخمسة، أعضاء خلية الشياح - عين الرمانة،

أمتع أوقات يومياتنا في المركز، هي أن نجتمع لتبليغ المهمات والاستئناس بالكلام على «التطورات السياسية»، وهي أجواء من المرح غير الطبيعي. في الخارج كان الرصاص والانفجارات. وعندنا في الاجتماع، كانت حالات من الضحك الحثيث. لا أذكر يومًا أنّ شيئًا بذاته استحق هذا الضحك كله في خليتنا؛ لكننا نضحك، كمن يتشجع على الخوف والموت.

الرفيقة زينب هي المنبع. إنّها ابنة منطقة الشياح العتيقة، وهي تعيش فيها منذ أن ولدت، من والدين جنوبيَّين. «هاجر» والدها من قريته إلى بيروت، بحثًا عن عمل مثل أترابه من الجنوبيين. وعندما وُفِّق في وظيفة متواضعة في وزارة الأشغال العامة، أحضر خطيبته من القرية للزواج والاستقرار في أحد الأحياء الفرعية من الشياح، في شارع «مارون مسك». والد زينب معروف أيضًا في أنحاء الحيّ المختلفة؛ إذ إنّه فتح «مشغلًا» للخياطة، في إحدى غرف منزله. وبمساعدة زوجته، استطاع تربية زينب وإخوتها الأربعة، وتعليمهم. زينب هي من بين الرفاق الأكثر تكبدًا لارتفاع المتاريس بين الشياح وعين الرمانة، وقيام خطوط تماسّ بينهما. فالمبنى الذي تقطنه عائلتها كان أول ما تعرّض لرصاص القنص من جانب حيّ عين الرمانة «المعادي»؛ لأنه مواجه تمامًا؛ إذ لا تغطّيه شجرة، ولا شرفة، ولا حتى عمود إنارة. وبعد أيام من اندلاع أوّل الاشتباكات، تحوّل هذا المبنى إلى ما يشبه المنْخل لكثرة الرصاصات التي اخترقته. بطبيعة الحال، انتقل والداها وإخوتها إلى منزلها الواقع في «الداخل»؛ أي بعيدًا عن مرمى القناص أو قذائف الهاون. وهو منزل تعيش فيه مع زوجها الرفيق مرتضى منذ عامين.

لم تكن زينب تنام معنا في المركز؛ فهي تأتي في الصباح الباكر

وتغادر متأخرةً، وتحمد الله بلا كلل على أنها لم تنجب حتى الآن. كأنّ الحرب حرّرتها من ذنب تأخرها في الإنجاب بعد عامين من الزواج؛ لذلك ربما تطلق العنان للمزاج الساخر المرح منذ لحظة دخولها إلى المركز حتى المساء. وكانت زينب تعرف كلّ شيء عن الشياح، وكان لأهلها امتدادات في أزقته وخارجه، في حارة حريك وبرج البراجنة. لم يكن يعني تغييرًا كبيرًا، حينئذٍ، أن تكون هنا أو هناك. كلّ شيء في زينب يدفع إلى المرح؛ مشيتها التي تشبه الإعصار، وتصميمها الذي تعبّر عنه بالضغط على أكتافها؛ كأنها لا تريد أن تعترف بأنها تئنّ تحت ثقل الأعباء الحزبية، وانسجامها التامّ مع البيئة الشعبية المحيطة بنا - نحن سكان المركز - ولهجتها وتعابيرها الجنوبية الخالصة غير المعقدة من «قفلاتها»، والمتدفقة مثل شلال الكلام الطيب، وقدرتها على السخرية من نفسها قبل غيرها... هذه الصفات كلها كانت تتّسم بها الرفيقة زينب، فأضاءت الأيام التي كنّا نطبخ فيها لخمسين شخصًا - نحن المتزوجات الجديدات اللواتي لا نكاد نقلي بيضةً - فنضحك ممّا سيأكله الرفاق بنَهمٍ، ونردّد أننا سنمتنع عن تناوله، من دون أن يلاحظ الرفاق ذلك. بطبيعة الحال، لا ننفّذ وعودنا لأنفسنا، خصوصًا أنا وزينب؛ ذلك أنّنا نتمتع بشهية تتفوق على المنغِّصات كلها؛ من طعام غير كافٍ، أو فائضٍ، أو غير مُسْتَوٍ، أو حتى إن كان ينقصه ملحٌ أو بهار، أو ينقصه حتى الطعم في معظم الأحيان. زينب هي «دينامو» الخلية، بمعرفتها الدقيقة للمحيط، بمعرفتها الفوارة، بركضها مشيًا، بتلك الموهبة اللماحة المدركة، وتلك القدرة على تحويل الحرب إلى أمرٍ من أمور الحياة العادية، إلى مشكلة علينا أنْ نحلّها بحرارة وبرودة، بمسافة ومجاورة، بموجات منتظمة من السخرية، لا يُخِلّ بها قناص أو قذيفة.

الرفيقة وردة تترقّب تلك الإشارات الأولى للضحك، تتوسلها أحيانًا، تعلّق عينيها على الرفيقة زينب لعلها تشهد طلوع الضحكة من أساسها. كانت دائمة الاستعداد لتلقّي أيّ نسمة ضحك قبل ولادتها. الرفيقة وردة تبدو مثل ابن طريقة صوفية يرصد إجابات معلّمه، أو شيخه، عن أسئلته الروحية. تسير خلف زينب، تناصر ضحكتها، تكرِّسها، تشكرها بإيماءات من وجهها. لكنها لم تبادر، أيّ مرّة، إلى منافسة زينب في خلْق تلك الحالة التي تتوسلها؛ ربما لأنها هنا، في الشياح، غريبة عن بيئتها الأصلية. هي ابنة الجبل البعيد المقيمة في طريق «الجديدة» منذ أن دخلت الصفوف التكميلية. ارتأى أهلها وقتها الانتقال إلى العاصمة، مع أولادهم الأربعة؛ لأنّ التعليم هنا - في بيروت - «أقوى»... هي أكبر إخوتها، هي الذريعة للانتقال. حيّ طريق الجديدة غريب عنها، وحيّ الشياح أكثر غرابةً. فهي لم تعش كثيرًا في بيروت؛ ثماني سنوات فقط، أو أكثر قليلًا.

كانت الرفيقة وردة في قريتها الجبلية شيوعيةً أصلًا، وكان أولاد عمومتها كلّهم في المنظمة التي لا تذكر تحديدًا متى التحقت بها. هي تأْلف شيوعيّي الجبل أكثر من شيوعيّي الشياح، أو حتى طريق الجديدة. لكن ما الذي أوصلها إلى هنا؟ أهي ترتيبات تنظيمية لا نعلم حكمتها أم أمرٌ آخر؟ لا أصرّ كثيرًا على التساؤل. لكنني ألاحظ أنّ بين الرفيقة وردة والرفيق مراد استلطافًا ونظرات. هذه الإشارات ستتطور بعد سنوات، إلى زواج مدني؛ فهي من طائفة أخرى، غير طائفة الرفيق مراد.

لكنّي الآن أقول لزينب، مُلاحظةً التقارب بينهما: كيف يمكن لرفيق مثل مراد، وهو على هذه الدرجة من الجدية والعبوس، أن يطيق الرفيقة وردة المستعدة دومًا لتلقّي الضحكة من أيّ لسان؟

فمراد هو أنموذج الرفيق الذي يأخذ كلّ شيء، من دون استثناء... بمنتهى الجدية والتجهّم. تعابير وجهه لا تتغير، من الصباح حتى المساء. إذا دخل في تفاصيل المكتبة، ووضع أغنية على الكاسيت، من تلك الأغاني التي يداوم عليها؛ مثل «أوبيريت» فيروز «جبل الصوان» التي يفضّلها على غيرها، ينغمس في مسح غبار الكتب، وكأنه يدوّن محضر اجتماع الخلية، وكأنّ صمتًا يسود القاعة، على الدرجة نفسها من العبوس والانقباض. وإذا شارك في حفل - مثل تلك الحفلات التي نقيمها ابتهاجًا بنصر ما على الجبهات - يقوم بكل ما عليه؛ يغني، يرقص، يصفق، يرحّب بالرفاق الزوار... كأنه يحمل كراسيّ الاحتفال على كتفيه، كأنه يحفر الحجر من الجبال. الرفيق مراد هو هكذا، وتفهمه أكثر عندما تلتقي أمّه وإخوته. في عائلته، شهيد من أيام معارك الفدائيين في الجنوب اللبناني قبل الحرب. وهو سيخسر شقيقه الصغير، أحمد، في أولى معارك الفنادق، بأكثر الطرائق سخافةً؛ إصابته في فخذه كانت خفيفةً، إلا أنه كان يمكن معالجتها لو تلقى الإسعافات الأولية. لكن في خضم المعارك، لم يتمكن أحد من الاهتمام به، أو نقله إلى خارج دائرة القتال؛ فكان نزيف فخذه بطيئًا، حتى قضى.

والدة الرفيق مراد لا يتوقف حزنها عند حدّ. عندما حضرنا لتبليغها عن استشهاد ابنها، كانت كمَن يتلقى نبأً منتظرًا. وضعت كفًّا على كفّ بحرقة، وصرخت كأنها تناديه «أحمد..!»، لتنتظر الجواب بضع ثوانٍ، وتعود إلى ذلك مرةً، واثنتين، وثلاث مرات... ثمّ تفقد وعيها. حملناها إلى غرفتها حيث لازمت فراشها صامتةً أيامًا طويلةً. وعندما نهضت، بعد أربعين يومًا - بناءً على إلحاح باقي أولادها - كانت امرأةً أخرى. فاستشهاد ابنها الثاني أضاف إلى عينيها ثَنِيّات

عميقةً، وأصاب شعرها بالبياض، وهي ابنة السابعة والثلاثين. كانت تجلس في صحن الدار، طوال النهار، متكوِّمةً على نفسها، واضعةً يدها على ذقنها، يسندهما طرف الكنبة، تتأمل صُوَر ابنيها الشهيدين، وتبكي من دون دموع.

الرفيق مرتضى هو زوج الرفيقة زينب. كان يحظى بحيوية مثلها. لكنّ حيويته جسدية؛ فهو يحبّ الحركة والذهاب والإياب، وحمْل الأشياء الثقيلة، والانتقال من مكان إلى آخر، من وظيفة إلى أخرى. طاقة من العمل المتواصل هو الرفيق مرتضى. وكل ما تريد أن تعرفه عنه، تجده في زوجته زينب؛ فهي مرآته. تُفهمكَ أحيانًا، من دون كلام، طبيعة هذا الزوج المناضل، شبيه غاري غرانت، النجم الهوليودي الشهير، بعينيه البراقتين، وطوله الفارع؛ إذ يبدو كأنّه أخطأ في اختيار المكان الذي وُجد فيه. فكأنّ مصادفةً سيئةً جاءت به إلى هنا، وليس التزامه الحزبي.

مع الحزب الشيوعي اللبناني تحت سقف واحد (1975)

قبل اندلاع الجولة الأولى من الحرب، كنّا أكثر فلسطينيةً. كانت المنظمات الفلسطينية المسلحة تؤنسنا، وتدغدغ أحلامنا السياسية. كانت قريبةً إلى قلوبنا، تصنع موقفنا وتؤكّد عقيدتنا، على عكس الحزب الشيوعي اللبناني الذي وافق، خلف الاتحاد السوفياتي، على تأسيس دولة إسرائيل، والذي غمْغم طوال الأعوام الأخيرة: أيدعم الفلسطينيين في كفاحهم المسلح، أو لا يدعمهم؟ وهذه نقطة نؤاخذه بها، ونرددها ببداهة، لا تغيّرها «لَحْلحة» الحزب عشية الحرب وتشكيله لمجموعاته المسلحة، وتلقّي أعضاء منه دورات تدريبيةً عسكريةً في موسكو.

كنّا في العامين الأخيرين نتحالف مع الحزب في انتخابات الاتحاد الوطني لطلاب الجامعة اللبنانية؛ نؤلف اللوائح المشتركة، ننسّق بشأن صناديق الاقتراع، نتفق معهم على جداول أعمال مؤتمراتنا، وعلى المطالب الطلابية الخاصة بكل كلية بعينها، ننسّق هجماتنا وسجالاتنا ضدّ اليمين... كلّ هذا صحيح. لكننا كنّا أيضًا نَصِف الحزب بالـ «تحريفي» الذي انزاح عن الخط البلشفي القويم، وصار تابعًا للكرملين، عبر ذلك التنظيم الدولي الشيوعي المسمى «الكومنترن». أمّا نحن، في «منظمة العمل الشيوعي»،

فإنّنا النظفاء، الأوفياء لمُثل البلاشفة الأوائل، المتمسّكين بالطهارة الشيوعية الأولى... نحن غير كلّ ذلك؛ نحن جذريون في مواقفنا. فنحن مع فلسطين حتى تحرير كامل ترابها، وضدّ النظام الطائفي الرأسمالي حتى إسقاطه من أساسه، ولسنا مثل أولئك الشيوعيين «الانتهازيين»، «التحريفيين» الذين سرّبوا إلى صفوفهم فكرة «إصلاح» النظام الطائفي، ليشتركوا في الانتخابات النيابية. كنّا ننظر إليهم بنوع من التعالي الأخلاقي السياسي. لكن لا يقتصر الأمر على ذلك فحسب، فنحن حديثو العهد في الحياة الحزبية؛ انتشرنا مثل البرق وسط الطلاب الثانويين والجامعيين، في حين أنّهم كانوا هم الكسالى، على الرغم من تأسيس حزبهم قبل نشأة لبنان. فأُطرهم ضيقة ومغلقة، باهتة وثقيلة، تعوزها روح الشباب، وكثيرٌ جدًّا من الثقافة. وعندما كنّا نقارن بيننا وبينهم؛ بين رفاقنا ورفاقهم، كنّا نجد بسهولة نقاطَ تفوقنا عليهم. فنحن قادرون على قراءة ألكسندر سولجنتسين وأندريه أماليريك وفرلام شالاموف... أمّا هم، فيضعون كلّهم أصبعًا على النظام الشيوعي الستاليني، القامع، التراتبي، الجامد... هذه القدرة كانت تضعنا في مرتبة أعلى. والأمر الغريب في هذا التعالي، ليس وهميته فحسب، بل تلازمه مع مَيلنا إلى الأكثر ثوريةً أيضًا، إلى الأكثر تأكيدًا للمساواة، من بين كلّ ميلٍ رائجٍ في ذلك الوقت.

تتبدَّد تلك الأوهام عندما نسكن مع الحزب في المركز، في الشياح، على أساس أننا أصبحنا أقرب إلى بعضنا، نتيجة الهجمة اليمينية الشرسة، وأنّ التنسيق صار بين حزبَينا من الضرورات. فإذا كنّا نستطيع أن نبني تحالفًا مع الأحزاب الوطنية الأخرى كلّها، ومع شخصياتها «الإسلامية»، فالأحرى بنا أن ننسّق مع أقرب المقربين

إلينا، حاملي صِفتنا العقيدية نفسها. هذا ما يُفهمنا إيّاه مسؤول خليتنا الرفيق أشرف، قائلًا: من الآن فصاعدًا، علينا أن نأخذ المهمات المشتركة كلّها بيننا وبين الحزب الشيوعي مأخذَ التكليف الحزبي، وعلينا أن نتعايش مع الذين تحوّلوا إلى «رفاق الحزب»؛ وذلك بقرار حزبي من أعلى المستويات.

هنا، في هذا المركز الحزبي في الشياح، تنقلب نظرتنا إلى الحزب. كنّا نحظى بدرجة عالية من الحرية - نحن أعضاء المنظمة - نبادر بفضلها بأفكار جديدة دائمًا، مستحيلة أو صعبة التطبيق، وهي حرية تتيح لنا «التخفّف» من ذواتنا الحزبية، وتبدو للعيون البعيدة كأنها طيش، أو رعونة، أو قلة التزام... من خلال ما كنّا نسمعه من حولنا. ويدعم «خفّتنا» استعداد دائم للضحك، والتحريض عليه، والاحتفاء به. والضحك سليل المبادرات الفردية، والوقائع الغريبة التي تخلقها. إنّه عكس الجدية، عكس الخطوات المدروسة والموزونة والمقرَّرة التي لا تترك ثغرةً واحدةً، ولا دقيقةً واحدةً لدهشة المبادرات.

ثلاثة رفاق من الحزب الشيوعي في مركز الشياح يَقلبون صورتهم السابقة عندنا من بينهم الرفيق رزق ذو الشارب الكثيف، وقد بلغ من العمر عتيًّا، بالنسبة إلينا نحن أبناء أوائل العشرينيات. ولم يكن الرفيق رزق يسكن معنا في المركز، بل كان يحضر في الصباح الباكر بسيارته «الفيات» النظيفة، ويدخل إلى «مكتبه» حيث يجتمع بقادة المركز من الحزب، في الغرفة المجاورة لـ «مكتبنا». والأرجح أنّه يوزع المهمات بين الرفاق بدقة في الاجتماع، من أصغرهم حتى أكبرهم. يشرب فنجان الشاي «سكّر زيادة»، ويختلي ساعةً لقراءة الصحف. وبعد ذلك، يخرج إلى باحة المركز، ويجول

في الغرف المختلفة، ويراقب تنفيذ المهمّات، وينتبه إلى النظافة، ثمّ يخرج، ليعود إلى الغداء فيقتسم مع الرفاق طعامهم الذي يبدو مقبولًا أكثر مّما نطبخ نحن، ويتكلم مع جميع هؤلاء الرفاق حول آخر المستجدات، وآخر ما قاله زعيمهم، وآخر المواقف والتحليلات. الرفيق رزق بئرٌ لا تنضب من ذلك الكلام الذي نعشقه؛ بشأن العلاقة الوطيدة بين اليمين اللبناني والطغمة المالية والإمبريالية العالمية. ألتقيه أحيانًا في تلك الاحتفالات «المشتركة». أريد أن أعرف أكثر عن الرفيق رزق، أتردّد، أقاوم فضولي. ليس في منظمتنا من يشبهه في صرامته الإنسانية وانضباطه، ودسامة الأخبار والتحليلات التي بحوزته دائمًا. لكنني في النهاية أقترب منه وأحاول التنصّت إلى كلامه، فيغلبني فضولي نهائيًا. الرفيق رزق ليس كما نصوّره، في منظمتنا: ليس كما نصوّر التحريفيين الجهلاء. في خلفية كلامه، ثقافة كبيرة لا يفصح عنها، لا ينطق بها، لكنها تحرّك عقله، ترتّبه، تهيكله، تضع له الأُطر المطمئنة لتفكيره. ليس هذا هو مزاجي تحديدًا، لكنّ مفاجأتي بشأنه باقية، إضافةً إلى تسرّب قليل من الغيرة السياسية إلى نفسي في غفلة منّي.

تأتي الرفيقة إيمان... لم تغير هندامها عندما أتت لتسكن في المركز. كان هندامًا حرًّا تأخذ فيه كامل راحتها، وهو فضفاض بقماش قليل وقصّات ناتئة وعري الزنود، وشعر أملس طويل تتركه طليقًا، وعيون «مكحّلة»... هكذا تقدم الرفيقة إيمان نفسها إلى المركز الحزبي. لا أفهم هذه الحرية في تنظيم هندامها إلا بعد ما تتبين لي درجة اندماجها، بل «عضويتها» في المجتمع الشياحي. فإيمان ليست وحدها من بين بنات الشياح التي ترفض تقديم صكوك براءتها عبر تغطية جسدها. مثلها مثل جاراتها في حيّ أسعد الأسعد،

كانت واثقةً بـ «براءتها» من التّهم والإشاعات حول المركز، ولا تأبه ثانيةً واحدةً لكلام الآخرين، ما دام أهلها كلّهم موافقين على سلوكها. لكنّ هذه ليست خاصية الرفيقة إيمان الوحيدة. هي أيضًا لا تنام في المركز؛ لأنّ منزل أهلها قريب. تأتي صباحًا، وتعود في المساء. ولم تحضر الرفيقة إيمان مرةً واحدةً من دون كتاب، ودفتر صغير وقلم. كانت تقرأ أثناء الأوقات الميتة، تسجّل، تشرد؛ كأنّ الذي حولها حديقة غناء، وليس مركزًا حزبيًا مستحدثًا، معرَّضًا للقصف أو القنص أو الهجوم من الجهة المقابلة، اللصيقة... أسترق النظر إلى الرفيقة إيمان، ولم أكن مستعدةً بعدُ لسؤالها عمّا تفعله؛ فبذلك أغذّي غيرتي السياسية التي يشعلها الرفيق رزق. لكنني أسأل... أسأل الرفيقة زينب، لكونها ابنة الشياح، ماذا تفعل الرفيقة إيمان إضافةً إلى أنّها عضو في الحزب الشيوعي؟ «إنها مدرّسة وكاتبة...»، تجيبني زينب. أُلحّ عليها: «وماذا تكتب؟».

- إنها تكتب في جريدة الحزب مقالات عن كُتب قرأتها. نقد أدبي يعني...

- مناضلة في المركز. طوال النهار، «تسرق» الوقت لتقرأ، لتعود إلى البيت، لتكتب وسط هذا الرصاص كله.. يا لها من امرأة!

- لا تنسَي أنها ليست متزوجةً، وأنّها لن تعود إلى بيتها، لتنكبّ على الطبخ والتنظيف..!

نعم، نعم، أفهم. لكنّ هذه أول امرأة أتعرّف إليها تكتب وتنشر. وهذا ما يجعلني أفهم قليلًا أكثر سرّ هندامها. الجو المحيط بها، طبعًا، لكن أيضًا ذاك المظهر الذي تحرص على إتقانه. إنّها شبيهة سيمون دي بوفوار، أو أنني أتوهّم ذلك، أريد أن أتخيل... أن أقنع

نفسي بأنّ الحزب لم يتفوّق علينا من هذه الناحية الإضافية إلّا لأنّه قريب من بنات أفكارنا، نحن أعضاء المنظمة.

الرفيق كمال هو البطل المضاد، البطل الشَقي، في الحزب. «شبيح» بالفطرة، لكنه شبيح مقموع من قيادة الحزب. كلّما حاول أن يقلّد تلك الحركات التي بدأت تنتشر بين حزبَينا، كان نصيبه التوبيخ، وأحيانًا الإنذار. ماذا يحاول أن يفعل الرفيق كمال؟ أن يحمل رشاش الكلاشنكوف دائمًا، أن يرفعه عاليًا كلّما كان ماشيًا، أن يخرج «بوزَه» وهو يقود السيارة، أن يمشي في الشياح ناشرًا عضلاته على الأهالي، يتدخل في شؤون الناس، يطلق الرصاص على الطالع والنازل «يشفّط» بالسيارة ويسرع بها في أضيق الأزقة... لكنّ الرفيق رزق بالمرصاد؛ تأنيبه الحزبي يصل إلى مسامعنا، يخرج منه الرفيق كمال مطأطَأ الرأس، منخفض الكتفين، كأنه مهزوم. لكنه سرعان ما يعود إلى ما كان عليه ويقوم بتلك «التشبيحات»، فيقمعه الرفيق رزق... وهكذا... وخلال السنوات اللاحقة، عندما تحوّل المسلحون إلى أراهيط متحكمة في رقاب البشر، يرتكبون الجرائم والسرقات ويشتبكون مع المدنيين... وكانت بيانات الأحزاب التقدمية تدين بشدة هذه الأعمال، وتعدّها من أفعال «عناصر غير منضبطة»، كانت صورة الرفيق كمال تعود إلى ذهني، بضخامة جسمه، و«شرر» عينيه، فأشرع في التساؤل إن كان هو من بين تلك «العناصر».

مهمات خارجية خاصة (1975)

كان عدد الرفيقات في مركز الشياح قليلًا، والمهمات الموكلة إليهن كثيرة متواصلة لا تتوقف إلا عندما تحين ساعات النوم. ومع ذلك، تنتظرهن في بداية إقامتهن في المركز، مهمات خاصة خارج الشياح، تتمّ بتكليفٍ حزبي خاص. بعض هذه المهمات يحتاج فعلًا إلى رفيقات، وبعضها الآخر لا يجد من الرفاق من ينفّذها؛ فالرفاق جديدو العهد بالنسبة إلى تلك الحرب. لم ينتظموا في دورة مناوبة، لم يضعوا جداول مهمات؛ لذلك فإنّ اهتمامهم بالجبهات يتمّ بنوع من الفوضى؛ إذ يكون الرفيق قد سهر طوال الليل في حراسة خطوط التماسّ بيننا وبين عين الرمانة. ولمّا يعود في الصباح، يُكلَّف بمهمة عسكرية أخرى على القدر نفسه، وأحيانًا أكثر من ذلك. وعندما يأتي دوره ثانيةً في المناوبة على هذه الخطوط، يكون شبهَ منهارٍ من التعب، لكنه يذهب... ليعود منها غافيًا وهو يمشي، ويرمي نفسه على أوّل «فرشة» ملقاة في إحدى الغرف المخصصة لنوم الرفاق.

عند هذه الحالة، تكون الرفيقة أفضل من يقوم بالمهمة الموكلة عادةً إلى أحد الرفاق. بعد حين، ينتبه الرفاق إلى شظايا القذائف التي تُرمى على أطراف المركز، فتصيب مدخله، وحتى باحته. عندها، يقرّرون حمايتها بأكياس صغيرة من الرمل، يصفوّن بعضها فوق بعضها الآخر، لتشكّل ما يشبه حائطًا؛ متاريس تحمي كلّ من

يقف خلفها. يقول لي الرفيق أشرف: «غدًا، تذهبين أنت والرفيق سعد لملْء شاحنة بالرمل من شاطئ الأوزاعي. تقودين الشاحنة بدلًا من الرفيق سعد. أنت تعرفين قيادتها، أليس كذلك؟». المهمة تُفرحني؛ إذ أخرج من رتابة المهمات الداخلية، وأقود شاحنةً. «طبعًا أقود الشاحنة!»، أستعجل الرفيق أشرف، إنه يعلم أنّ الرفيق سعد لن يمانع؛ فهو حضر أَمسِ، ولم يتدرب بما فيه الكفاية على السلاح ليحمل الكلاشنكوف ويواظب من الآن على خطوط التماسّ. ربما لن ينهي تدريبه؛ فنظَرُه ضعيف، حتى مع تلك النظارات السميكة التي ترى من خلفها عينيه المتعجبتين دائمًا. إذًا، غدًا إلى شاطئ الأوزاعي.

أركب الشاحنة، إلى جانبي الرفيق سعد، وننطلق جنوبًا نحو الأوزاعي. لا تستغرق الرحلة من الشياح حتى شاطئه أكثر من عشر دقائق. سيارات قليلة تعبُر الشوارع. الحرب لم تنتهِ. يسمح وقْف إطلاق النار بالتنقل الحذر. كنت أقود الشاحنة، أرى منها ما لم أكن أراه من سيارتي «الفولسفاغن» الصغيرة الزاحفة على الأرض. من الشاحنة، أنظر إلى بيروت من فوق. أرتفع مترين عن سطح الأرض، فتمتدّ أمامي سطوح الأشجار عندما أصل إلى مرتفع التقاطع الذي يفصل شمال المتن الجنوبي عن جنوبه، ثمّ البحر، الشاسع المتلألئ ونهاية «مشوارنا»؛ رمال شاطئ الأوزاعي. عندما تعبُر شاحنتنا رصيف الشاطئ وتتوغل فيه، ألاحظ أنا والرفيق سعد آثار دواليب عريضة كالتي تدور بنا، واضح أنّها لمناضلين مثلنا، جاءتهم فكرة هذا الشاطئ المشاع الذي لا يملكه أحد. لسنا نحن أوّل من أُلهِم فكرةَ رماله. بعدها، نعطي ظهر الشاحنة للبحر، وننزله تيسيرًا لجمع الرمال. نخرج من الشاحنة محمَّلين برفشٍ، ونملؤه بالرمل غرسًا،

ونرميه على ظهر الشاحنة. الأمر ليس بالهيّن كما تصوّرت في خضم حماستي لقيادة ناقلة بهذه الضخامة.

أقول لنفسي إنّه كان عليّ أن أفكر عكس ذلك كلّيًا. فلو أنّني جئت بسيارتي الفولسفاغن «الحقيرة» المنخفضة، لَاستغرق أمرُ تعبئتها بالرمل أقلّ من خمس دقائق. أمّا تعبئة الشاحنة، فلا! النهار ما زال في أوّله، ونحن نتصبّب عرقًا وضجرًا. لكنّ المهمة يجب أن تُنفّذ على أكمل وجه، ثمّ إنّ الرفيق سعدًا لا يحتاج إلى من يحبطه؛ فهو أصلًا تنقصه الحماسة. أضرب بالرفش وأضرب... لم أعُد أحسب عدد الضربات، ولم أعُد أشعر بالشمس وقد صارت فوق رأسي تمامًا. في المركز، بعد عودتنا محمَّلين بالرمل، لا تبقى لنا قوّة ولا همّة. علينا تعبئته في أكياس الخيش، وربطها بحبل سميك، وصفّها بعضها فوق بعض. نحتاج إلى أخذ أنفاسنا، ولو ساعةً من الزمن. وعندما ننتهي من «تعمير» المتاريس على مدخل المركز، نكون قد أكملنا المهمة على أفضل وجه، فنرتاح.

نرتاح؟ لا، لا، ما من راحةٍ؛ الرفيقات مطلوب منهنّ في اليوم التالي القيام بمهمة أخطر من تعبئة الرمال. مهمة جديدة تمامًا بالنسبة إليّ. لكنها من صميم نضالي الحزبي. مطلوب منّي، أنا والرفيقة نجاة، أن نهرّب سلاحًا وذخيرةً إلى بيروت الشرقية، وهذه أغرب المغامرات. الرفاق يحتاجون إلى رفيقات لتهريب السلاح ولا يحتاجون إلى رفاق؛ لأنهنّ ببساطة لا يُثرن الشُبهة على الحواجز المعادية. والرفيقات أيضًا، في هذا المجال، كنزٌ لا يفنى! وليس ذلك بسبب اشتغال الرفاق بالمعارك العسكرية. فمتى ارتدين الثياب المناسبة، واستعددن للنطق بالفرنسية عند أيّ حاجز، مع التكلّم بـ «فرنسية متقنة»، تبدّدت الشبهات حولهن. أخطر مهمة إذًا، هي تلك

التي لا يستطيع تنفيذها إلا رفيقات. سيارة الـ «بي إم دبليو»، «السبور كوبّيه»، شبيهة الصاروخ الأرضي، تنتظرني، أنا والرفيقة نجاة، في مركزنا الرئيس في الطريق الجديدة. تعليمات الرفيق طلال واضحة: علينا أن ننطلق بسيارتنا المحملة سلاحًا وذخيرةً نحو «الرينغ»، تلك الجادة الشاسعة الفاصلة بين بيروت الغربية وبيروت الشرقية التي لا يمرّ فوقها إلا الطيور، نظرًا إلى سهولة استهداف عابريها من القناصين. علينا أن نمرّ فوق الرينغ بسرعة قياسيّة، حتى لا يصِل إلينا رصاص القناص. وعلينا بعد ذلك أن نتجه مباشرةً نحو الأشرفية، ثمّ الدورة، في الشارع المتفرع من محطة الوقود المعروفة التي خلفها شجرة الكينا الضخمة. علينا أن نصل إلى بناية جديدة في طابقها الأول، عيادة للدكتور فادي الفادي المعروف بمعالجته ضحايا الحرائق؛ ننزل إلى طابقها التحتي حيث ينتظرنا الرفيق جورج، نسلّمه السلاح على عجل، ونعود أدراجنا إلى بيروت الغربية. أثناء قدومنا، يعترضنا داخل الأشرفية حاجز كتائبي، يسألنا عن هويتنا، نكلّمه بفرنسية باريسية تتخللها عربية مكسَّرة، فيدعنا نمشي، ملوّحًا بيده، علامةً على اطمئنانه.

أمّا عبور الرينغ، فهو حالة أخرى؛ إذ لا يدوم أكثر من دقيقتين، وسيارة الـ «بي إم دبليو» الصاروخية اختيار موفق. إنها تطير، لا تسير. لكنّ الدقيقتين مثل مئة سنة. الرصاص فوق رؤوسنا، أسمع أزيزه، أكاد أخمِّن مصدره، أفلسف وجودنا تحت رحمته، أقول لنفسي إنّه لن يصيبني، لن أموت الآن، لا ليس وقتي الآن، فيجرّني اليقين نحو مزيد من السرعة. كلّ هذا في خلال دقيقتين... أثناء ذلك، تولد فكرتي عن حياتي وعن موتي، عن شجاعتي وخوفي. فكرة تتأرجح كثيرًا بعد ذلك، وتبقى في النهاية كما كانت في لحظة

ولادتها الأولى، تحت أزيز رصاص القنص المعادي. لقد بقيتُ أعتقد أنّ موتي لم يَحِن وقته بعدُ، وأنّني سوف أعيش مئة سنة، من دون أن أغفل لحظةً واحدةً مفادها أنّه يمكنني - وأنا أتمثّل ثقتي بعمري المديد - أن أنتقل إلى «الدنيا الأخرى» بسقوط غصن شجرة غليظ فوق رأسي، أو دعامة عمارة قيد الإنشاء، أو أيّ شيء تافه، من دون أن يكون رصاصةً أو قذيفةً.

تزوّدني تجربة عبور الرينغ بذاك التأرجح المقلق بين النظر إلى الموت بصفته مقبلًا ومتأخرًا في آنٍ. وعندما أعود، بعد تجربة تهريب أولى، إلى مقرّ منظمتنا في طريق الجديدة لأسلّم السيارة، وأصف نجاح المهمة للرفيق طلال، أطلب منه أن يكرر تكليفي بـمهمة الرينغ. من بعد تلك التجربة، عبرت الرينغ مهرِّبةً السلاح مرّتين على نحو مشابه للمرّة الأولى، مع إضافة التجربة والخبرة؛ إذ تصبح سيارتي أسرع، وأكون أقلّ قلقًا، واثقةً، أَمْيَلَ إلى المئة سنة التي سوف أعيشها، ولا أحتاج إلى الشجاعة ليكون وجهي متصدّيًا لوجه القناص الذي يحاول أن يقتلني، وهو معتقد أنني مواطنة بسيطة تنتقل من الغربية إلى الشرقية، غير عالمٍ بأنني أنا والرفيقة التي معي، نحمل سلاحًا وذخيرةً إلى أعدائه.

مهمات فلكلورية خطرة (1975)

لا أعرف تحديدًا، إن كنت قد كُلِّفتُ بهذه المهمة، أو أنّني كَلّفتُ نفسي بها. أتت المهمة هكذا، كأنّها طرحت نفسها من تلقاء نفسها: على الرفيق خالد أن ينفّذ خطة منظمتنا وحلفائها في الحركة الوطنية، وهي خطّة تقضي منْع احتكار التجار السلع الأساسية. فُقِد الخبز من الأسواق وتعطّلت الأفران، والأهالي يشترون الطحين ويخبزونه في بيوتهم؛ فارتفع سعر الطحين، وصار يُباع في السوق السوداء. وبعد تدارسٍ مع «الحلفاء»، يكون القرار متمثّلًا في خوض «الأمن الشعبي» معركة الكشف عن المحتكرين، وعن مخابئ بضائعهم ومصادرتها لمصلحة الشعب. و«الأمن الشعبي» هو إطار، تتوزع في داخله الأحزاب المختلفة المشتركة في الحركة الوطنية، وهو يعالج شؤون حياة الأهالي اليومية. وبناءً على قرار هذه الأحزاب، سوف يقوم «الأمن الشعبي» بزيارة «تفقدية» إلى جميع نقاط بيع الطحين بأسعار احتكارية في ساحل المتن الجنوبي، واتخاذ الإجراءات الملائمة في حقّ المحتكرين الجشعين.

يقع الاختيار على الرفيق خالد، قائد المهمة التي توكل إلى منظمتنا. إنّه اختيار موفَّق؛ لأنّ الرفيق خالد من المقاتلين الذين استبسلوا في القتال في محور الشياح - عين الرمانة. إنّه مخيف بعرضه وطوله، وبنظراته القاسية، على الرغم من صغر سنّه. انطلق ثلاثتنا:

أنا والقائد خالد ومساعده الرفيق بسّام الأقلّ خبرةً بالقتال، في سيارة الجيب العسكرية. الرفيقان خالد وبسّام يحملان السلاح. كنت في المقعد الأمامي، وكان الرفيق بسّام في المقعد الخلفي. توجّهنا نحو حيّ حارة حريك حيث يوجد ما يشبه الدكان، وكانت فوق مدخله لافتةٌ كُتب عليها «دكانة أبي توفيق». يدهشني صغر حجم الدكان. كنت أتخيل، بناءً على ما قرأت أنّ محتكر أيّ مادة يملك مستودعًا فسيحًا، يدخن صاحبه «السيجار» وتتقدمه «كرشٌ» غليظة. أمّا هنا، فنحن أمام رجل منحني الأكتاف، حزين، يدخن سيجارة «البافرا» الواحدة بعد الأخرى. كان في دكانه أجبان وألبان ومعلبات وخضار وطحين. عندما ننزل من الجيب، يلاحظنا الجيران، يحدّقون بنا، وفي لحظة واحدة، يكونون قد تجمعوا خارج الدكان، ليتابعوا من بعيد مجريات ما سيحصل لصاحبه على أيدي «أصحاب الحق». يسأل الرفيق خالد، والرجل لا يفهم شيئًا:

- هل هذه هي أكياس الطحين كلها عندك؟

يسأل الرجل بعدما يستجمع قواه:

- ماذا تريدون؟ ومن أنتم؟

- نحن..؟ آه نحن..!

على الرفيق أن يريَه شيئًا مثل ورقة مهمة تجيز له «تفقّد» أيّ محلّ احتكاري. لكنه لا يفعل؛ فربما لم تكن ثمّة أيّ ورقة. بل يجيبه معتزًا بأنه من «الأمن الشعبي» التابع للحركة الوطنية: ألم تسمع به؟ يجيب صاحب الدكان: «كلّا...».

يردّ عليه الرفيق خالد:

- أنت، إذًا، لا تقرأ الصحف..؟!

المهم أنّ أكياس الطحين المعروضة هنا لا يتجاوز عددها الاثنين، أين الأكياس الأخرى؟ يلحّ الرفيق خالد، فتتصاعد نبرته:

- نريد أن نعرف، هل هذا كلّ ما تبيع من طحين؟ أين باقي الطحين؟!

يزداد الرجل غيظًا مكبوتًا، لكنه يجيب بأنّ هناك كيسين آخرين من الطحين خلف الستارة. يرفع الرفيق بسّام الستارة، ويظهر الكيسان محشورَين وسط زحمة من أوانٍ منزلية، يبدو أنّ أبا توفيق وضعها جانبًا ليركز على المواد الغذائية التي ازداد الطلب عليها منذ بداية الحرب. يسأل الرفيق خالد:

- إذًا أربعة أكياس من الطحين فقط... والآن «بكم تبيع الطحين؟! بأيّ سعر؟!».

- بأربعين قرشًا.

كان صوت الرفيق خالد يرتفع مع ارتفاع توتره، وهو يريد أن يدقّق: «أين الفواتير؟». لا فواتير طبعًا، مع دكان هذا «المفرق». فزبائنه، في أغلب الأحيان، يشترون بـ «الكيلو»، وبأقلّ من ربُع «الكيلو».

- كيف لنا أن نعرف، إذًا، أنّك لم ترفع سعر الطحين؟ كيف..؟ كيف..؟ فعلًا، كيف؟

لا جواب بطبيعة الحال. فالسؤال يطرحه الشخص «الغلط» على الشخص «الغلط». يصمت أبو توفيق. ويبقى الرفيق خالد

واقفًا، ومعه الكلاشنكوف الذي لا يفيده بشيء... كأنه أُسقط من يده، كأنّ المهمة الحزبية النبيلة الهادفة إلى الحدّ من احتكار سعر الطحين سقطت في بركة لزجة ألصقت أقدامنا بقعرها، فأيقظتنا؛ ماذا نفعل هنا؟ بأيّ حقّ نُدخل الفزع في قلب رجل لا يبدو وضعه أفضل من أوضاع الأهالي الذين يشكون ارتفاع سعر طحينه؟ ما الذي كان سيحدث لو أنّ المهمة انتهت بإطلاق رصاص... كان يمكن أن يحصل ذلك لو أنّنا لم نحدس سخافة موقفنا.. لو عاندَنا أبو توفيق، أو انفجر في وجوهنا، واستُفزَّ الرفيق خالد... وحدث استفزازٌ ردًّا على استفزاز، فآخر..؟ ألا تكون النتيجة، مثلًا، قتيلين وخمسة جرحى أثناء قيامنا بالمهمة النبيلة؟ «شهداء الطحين»؟ على كلّ حال، لا يحصل شيء من هذا كلّه. يدفعنا الشعور القوي بالبركة اللزجة، بجهد شاقّ، إلى الخارج، غير فخورين بالمهمة الخائبة التي أخذناها على عاتقنا.

في طريق عودتنا أسأل الرفيق خالد كيف وقع الاختيار على «دكانة أبي توفيق»، فيجيب متنهدًا بأنّها كانت مدرجةً في «لائحة المحتكرين»، وبأنّ بعض الأهالي اشتكى إلى الأمن الشعبي أنّه يبيع كيلوغرام القمح بمئة قرش. ماذا لو كان أبو توفيق، فعلًا، يبيع كيلو القمح بمئة قرش؟ ماذا نفعل به وبقمحه... غمْغمة أيضًا، لا تطول. ثمّ ينتفض الرفيق خالد فجأةً، يتذكر أنّه «عسكري أصلًا»، وأنّه يترتب على هذه المهمة الفاشلة الخروج بـ «درس مفيد»، يقولها بنوع من المهابة: «لا بدّ من تخطيط وتنسيق وأوامر واضحة...». وفي المركز، لا أتفوّه - حتى للرفيقة زينب - بكلمة واحدة عن «المغامرة». لا أشكو، لا أنقد، لا أحاسب. نوع من الخجل ينتابني فأرميه خلف ظهري، ونحن نسمع أصوات الرصاص والانفجارات.

في موقعة أخرى، لا تقلّ اعتباطًا، يكون الوقت بعد الظهر، بعد الغداء، تطلع صرخة قوية داخل المركز، لا أعرف مصدرها تحديدًا: «كتائب..! كتائب..! الكتائب يهجمون علينا!». لا رفاقَ عسكريين هنا، سوى الحرس، وجلّهم من المتطوعين الجُدد، تعلّموا حتى الآن كيف يحملون الكلاشنكوف ويطلقون الرصاص... وهذا يكفي على كلّ حال.

نهرع أنا والرفيقة زينب إلى المكتب حيث توجد دائمًا كلاشنكوفات مرمية على زاوية الحائط، كأنها للاحتياط. أتناول أنا كلاشنكوفًا، وأعطي آخر لزينب، ونخرج إلى أطراف المركز، متأهبتَين، محدّقتَين في الفراغات الآتية من الشرق، متربصتَين بالعدو، وقد صوّبنا السلاح بنوع من الفخر. فلو أنّنا استشهدنا هنا، فسيكون ذلك من حظنا... في هذه الأثناء، ثلاثة من رفاقنا، وأربعة من الحزب الشيوعي يخرجون هم أيضًا إلى جوانب المركز، ومعظمهم يحمل الكلاشنكوف، يرتجلون توزيعات لـ «نقاط» تخلو «من التخطيط والتنسيق والأوامر الواضحة»، ومن «لوازم الاشتباك الصحيح» كلّها التي «فَلَقَنا» بها الرفيق خالد، وهو عائد مع خيبته من معركة محاربة الاحتكار. يمضي أقلّ من ساعة ونحن كالصنم، ننتظر العدو ليأتي ويرى ما سوف نريه. أكان هدفنا حماية أنفسنا؟ أم أهالي الشياح؟ أم المركز فحسب؟ لا إجابة واضحة في أفعالنا. أمّا بخصوص أقوالنا، فالتهاني تنهال علينا، على شجاعتنا التي لم يكن لها داعٍ؛ لأنّ خبر الهجوم الكتائبي على الشياح لم يكن سوى إشاعة مغرضة، هدفها تحطيم معنوياتنا؛ وها نحن يا رفاق - بعد أن أثبتّم شجاعةً فائقةً - قد برهنّا على أنّ الإشاعات لا تصل إلينا قيد أنملة، وأنّنا انتصرنا عليها معنويًا وأثبتنا صحة خطّنا السياسي. لا يتكلم أحد

على الطريقة التي حاولنا بها «التصدي للهجوم الكتائبي المزعوم»، عن كيفية توزّعنا، عن تنسيقنا، عن أولويات دفاعاتنا... ولا يتناول أحدٌ احتمال أن تكون الإشاعة خبرًا أكيدًا يومًا ما... كيف نتصرف ساعتها؟ فالرفاق لا ينتبهون إلّا إلى شجاعتنا أمام الموت، وإلى «صحة خطّنا السياسي»، كما سوف يحصل بعد كلّ واقعة.

مشاهد من الحياة اليومية
في المركز الشيوعي (1975)

كان انقطاع الماء أمرًا جديدًا بالنسبة إلينا. كلّ يوم نقول إنّه «آخر يوم»، وإنّ الأمر لن يدوم طويلًا. نتخيل في سرّنا، ونتمنى، دولةً ما زالت قائمةً. لكن عبثًا. ليس علينا انتظار الدولة. نقول لبعضنا: علينا إيجاد طريقة. الماء؟ بسيطة، نشتري عشرين غالونًا من التي يحتوي أحدها عشرين لترًا، ونضعها على ظهر شاحنتنا الـ «بيك آب»، ونعبئها بالماء من مركز «عين الدلبة» نفسه، ونأتي بهذا كلّه إلى المركز؛ حيث نتعلم كيف نقنِّن المياه، كيف نعيد استعمالها في شؤون مختلفة، كيف لا ندعها في حال سبيلها، إلا بعد أن تكون قد قامت بوظيفتين أو أكثر؛ نجمعها في طشت، ونحن «نجلي» الأواني أو نغسل الخضار، نشطف بها الأرض، أو نغسل المراحيض أو نسقي بعض الأزهار المنسية على مدخل المركز... من دون أن ننسى في طريقنا غسل وجوهنا وأيادينا عند استيقاظنا صباحًا. أمّا الحمّام، فغير واردٍ. نقول في البداية، وكلّنا حماسة لقضيتنا، إننا نتحمل تقليل أمْر الحمّام، لكن في الواقع لا يتحمل الواحد منّا أكثر من يومين، فيُؤذن له بـ «السفر» إلى منزله، أو منزل أحد الرفاق القريب ليستحم.

كانت الكهرباء أيضًا مقطوعةً، من دون استئناف. كان الأمر يحتاج إلى تشغيل غسّالة ثياب، أو ثلاجة حيث نخزن طعامنا. لكن

الأكثر إلحاحًا هو الضوء الذي نحتاج إليه الآن أكثر فأكثر؛ بعد أن بدأ يحلّ فصل الشتاء، وصارت الشمس تغيب في الرابعة من بعد الظهر تقريبًا. الشمع هو الوسيلة البديلة من الضوء الكهربائي، لكنه ليس عمليًا؛ إذ كاد يتسبب قبل يومين بحريق كبير، لولا فطنة أحد الرفاق. الآن في الأسواق، ثمّة «آلة» جديدة اسمها «لوكس». نشتريها ونتعلم كيفية إشعالها بكيسها الرقيق المتدلي داخل قفص صغير من الزجاج. لكن إذا كانت النار أكثر من اللازم فإنّه ينطفئ، أو يتمزق. المهم أنّ «اللوكس» يدخل مركزنا قبل بيوتنا، ومعه «الأنتريك»، أو «البطارية»، وهو متفاوت الحجم، إلّا أنّ المتوسط منه هو الأكثر انتشارًا بيننا. «البطارية» أداة عملية، خصوصًا عندما يكون الظلام دامسًا، والقمر مختفيًا، والليل طويلًا. «البطارية» هي رفيقة دروبنا المعْتمة أكثر من «اللوكس». فهي تفتح لنا الطريق دائمًا، سواء مشينا على أرجلنا، أم قدنا سيارةً. فالرفاق تدربوا أيضًا على كيفية الإمساك بمقود السيارة باليد اليمنى ليلًا، وحمل البطارية باليد اليسرى وهم يقودون سيارتهم.

بما أنّ البنزين لا يتوافر إلّا قليلًا، أيضًا، وتعبئة السيارة منه تبدأ في الليل، ليكون لصاحبها الدور في الصباح الباكر، فإنّ البطارية التي بفضلها يصل رفيقنا إلى محطة البنزين، هي خير رفيق له، وهو يجتاز الطريق الخطِرة تحت القصف الليلي المعتم متجهًا نحو المحطة.

كانت تعبئة السيارة من البنزين مهمةً نضاليةً، لكنها امتياز أيضًا؛ وذلك بفضل تلك «الكوتا» الموزَّعة بين الأحزاب التي تمنحنا - نحن أعضاء «المنظمة» - حصةً لا بأس بها، عبر نوع من «الكوبون» الذي نعطيه لعامل المحطة، بعد انتظار ساعات خلف السيارات المنافسة. سيارات كثيرة مصطفّة على مدخل محطات الوقود، أصحابها شبه

نائمين على مقاعدهم، وأصوات القذائف فوق رؤوسهم، قريبة أو بعيدة، جفاف يصيب حلوقنا من شدة الخوف أو التوتر، شتائم يطلقها الجميع ضدّ «الحالة»، ريبةً من أن يكون أحد الأطراف قد نال «كوتا» أكبر من الآخر... كلّ هذا «جوّ» نبتلعه ونحن مرغمون، فنزيّنه لأنفسنا لنتمكّن من تحمّله طوال الليل، ونسمّيه «مهمةً نضاليةً». وعندما يكون أحدنا قد نال وقوده وانتهت مهمته، ينسى ما عاناه من تعبٍ، وينطلق بسيارته «مشفِّطًا» مزمِّرًا، منتصرًا، غانمًا... وربّما لا تكفي «الكوتا» الرفاق كلّهم، أحيانًا، فيكون الانتظار أثقل، وتكون الكمية المتاحة من الوقود أقلَّ، والعودة خائبةً والرفيق عابسًا.

مع شحّ الوقود، وتعطّل معظم السيارات، وبغية التنقل بين الحي والآخر، وحمْل الأواني أو المعدات أو الفُرش، وغير ذلك ممّا يلزم للتهجير الموقت أو الهرب إلى مكان أكثر أمنًا، يلجأ بعض سكان الشياح إلى الأحصنة، وأحيانًا إلى الحمير، أو حتى الجِحاش. لكن كيف حصلوا عليها؟ ومن أين أتوا بها؟ ربما كان ذلك من الأندية الراقية القريبة من المطار، أو من إسطبلاتٍ لشخصيات سياسية مهمّة، تقع فيلاتها غربًا، وقد غاب عنها حراسها، أو ربما تواطؤوا مع الغانمين. وربما كانت هذه الحيوانات تعيش هنا منذ زمن، خلف المنزل شبه الريفي، في الحديقة شبه العشوائية، أو الأرض البور... مشهد الأحصنة وهي تعدو في الأزقة محمّلة بما لزم، يتحوّل بعد شهور إلى ما يشبه الأفلام الإيطالية التي صُوّرت في الجزر الفقيرة؛ مثل سردينيا. أمّا أصحابها فيشبهون البطل صاحب السذاجة الأسطورية الذي كان يعتقد أنّ حصانه الهزيل وعصاه الملويّة، ورفيق دربه المطيع، أقلّ سذاجةً منه... سوف يكون له من ذلك حمايةٌ في معاركه ضدّ وحوش وهميين لا يقلّون عنه أسطوريةً.

هكذا هم أصحاب الأحصنة: ذقونهم المرتفعة تنمّ على كبرياء مضحك تجد تفسيره في هشاشة حياتهم... هذا على الأقلّ ما يخطر ببالي عندما أعلم أنّ سليمًا، وهو شاب عشريني، اعتاد المرور مزهوًا، من خلف مركزنا وهو ممسك بحصانه المحمّل بـ «كرتونات» من «البسكوت»... إنّ سليمًا، من شدّة تباهيه وهو يجول في الأزقة بحصانه، لم يبالِ بما سيراه القناص وهو مار أمام ناظريه، من دون أن يخفض رأسه، سوف تناله رصاصته بلا عناء شديد.

كانت رائحة «الكاز»، من دون شكّ، هي الأكثر حضورًا في مركزنا من بين سائر الروائح. وكان الكاز الممزوج بـ «المازوت» بديلًا من البنزين، عندما تكون المحطة «الشرعية» قد نفد وقودُها. وهو، طبعًا، بديل من الحصان الذي لا يقتنيه كلّ رفيق. وَفْرة الكاز ليست مفهومةً؛ فالطلب عليه شديد، ولا تقتصر فائدته، هو ونظيره «المازوت»، على تحريك السيارة. فالكاز أيضًا ضروري لذاك الجسم الجديد الذي يضيء ليالينا، المسمى «لوكس». من دونه، لا إنارة أيضًا. والكاز يشغل «البابور»، وهو بديل من فرن الغاز الذي اعتدناه في بيوتنا. والبابور الذي كانت جدّاتنا يستعنَّ به للطبخ ولِغلي الغسيل قبل اختراع «فرن الغاز»، نعود إليه ممنونات... نطبخ به، ونسخّن به مياه الشاي والقهوة، نغلي مياه اغتسالنا المقتضب في أصباح الخريف الباردة. إذًا هو حاجة ناجمة عن انقطاع المياه أيضًا.

ما لم أكن أتصوره يومًا، هو أن أكون مضطرةً إلى نقع شعري بالكاز. أشعر بالقمل، ولا أعرف أنّه قمل، أشعر بحاجة حثيثة إلى حكّ رأسي. يلحّ الحكّ عليّ ليلَ نهارَ، يحرمني من الانتباه والنوم. في البداية، أعتقد أنّ حساسيةً ما أصابتني من شدة روائح البارود المنبعث من الرصاص والقذائف، وقلة الاستحمام؛ أو بسبب مرض

من أمراض الحرب، خصوصًا الجَرَب، وكانت الرفيقة مرسيل مُوَسوسةً من هذا المرض إلى حدّ أنّها كانت تحمل معها قنينة «أتينول» تغسل به يديها كلّما سلّمت على أحد، وهي تقول إنّها قرأتْ أنه مرضٌ في منطقتنا الحربية. أسأل الصيدلي عن السبب، فيقول بعد «فحص» شعري، في نظرة لا تحترمني: إنّه «قمل يا مدام!». أخجل من المرض، صاحب السمعة السيئة بين الناس، ودليل قلّة النظافة، وقلّة المدنية... مثل «النَوَر...!».

ينصحني الصيدلي بالشامبو الفلاني ومن بعده محلول يوضع بعد الحمّام. لكن القمل يبقى، يتشبث، ومعه الحكاك المجنون بالرأس. أخجل من القمل... أسأل زينب، همسًا - مثلَ مَن ارتكب إثمًا - إنْ كانت هناك طريقة أخرى، غير محلول الصيدلي، يمكنها أن تزيل القمل عن رأسي. فتجيب: «طبعًا!»؛ سبق أن اختبرت القمل الذي أصاب عددًا غير قليل من الرفاق في المركز، وهم مثلي؛ لم «يُطنْطنوا» بالمرض، وتنصحني قائلةً:

- قُصّي شعرك على «الزيرو»، ثمّ اشتري قنينة كاز ومشطًا رفيع الأسنان، انقعي شعرك بالكاز، طوال الليل. وعند الصباح، تغسلينه وتمشطينه بالمشط الرقيق. وتعيدين الكرّة كلّ يوم، طوال أسبوع.

تنبش شعري، وتفهمني الفرق بين القملة البيضاء والقملة التي «فقست»، وأنّ هذا النوع يكون أكثر مقاومةً للكاز؛ لذا، يكون عليَّ إزالتها يدويًا بمشط ناعم. وهكذا، أُمضي أسبوعًا «غاطسةً» في الكاز، لتصبح رائحته النفاذة هي الإحالة المباشرة على تلك الجولة الأولى من «الحرب الأهلية» بعد عقود من انتهائها.

الرفيق علي يخطف
الرفيق جورج (1975)

«المركز» يستقبل، الآن، رفاقًا غرباء لم نصادف وجوههم في المهرجانات أو التظاهرات السابقة للحرب. عددهم ليس كثيرًا، لكنهم مختلفون. يبدون من مُحياهم وهندامهم فقراء. منهم من كان مُعدمًا... تجاعيد حفرت خطوطها على وجوههم، على الرغم من شبابهم، وكل قطعة من لباسهم كأنها مستعارة من هنا أو وهناك. لهجتهم ليست مثل لهجتنا، لا تمتزج فيها عاميات مختلفة، مع بعض الجوانب النحوية. لهجتهم صافية «ذات شخصية»، ويطلقون بعض كلماتهم كأنهم يعلنون عن الموقع الجغرافي لقُراهم. والمليح بينهم فيه خشونة أهل التعب الريفي، فلا تجذبنا عيناه الحزينتان إلا لتضاعف الحزن. منهم من أتَوا فُرادى، والآخرون قدموا مجموعةً صغيرةً؛ مثل مجموعة الشباب الهاربين من جحيم منطقتهم، بحيّ «الغوارنة»، الواقع في أنطلياس، بعد ما سيطرت عليه قوات اليمين اللبناني، وقتلت أهله وهجّرتهم. أحدهم، وهو يدعى أحمد، يمكث بيننا أكثر من أسبوعين، يخضع خلال ذلك لتدريب عسكري سريع. يخرج من المركز ذات صباح باكر - بحسب ما نفهم - في «مهمة حزبية» ويرجع إليه ميتًا. كانت واحدةً من «معارك الفنادق». ويقول الرفاق «استشهد هناك». وفي أثناء تشييعنا الرفيق أحمد، يخيّم علينا

حزن آخر. فأحمد من مهجَّري حيّ الغوارنة، وأهله لاجئون إلى مكان غير معروف. في البداية قيل للمسؤولين في شأن ترتيب التشييع إنّ أهله في صيدا، بمخيم عين الحلوة، لكنهم ذهبوا إلى هناك ولم يعثروا عليهم. الرفيق أحمد سيُدفن من دون علم ولا مشاركة أمه أو أبيه أو إخوته. لا أحد يبكي أحمد كما يجب. أقول في نفسي، كلّهم رفاق، حزانى، صحيح... لكنّ دموعهم قليلة، أو أنها لا تذرف على رفيق غريب أصلًا، لم يمضِ أسبوعان على تعرّفهم إليه.

من بين الرفاق الجُدد أيضًا، الرفيق عليّ، وهو ليس من الغوارنة، بل من البقاع، ولهجته البقاعية الطريفة لا يحدّها شيء؛ فهي مثل تقاسيم وجهه الضاحك، وحيويته وقهقهاته الغزيرة. جاء إلى المركز قبل الرفيق أحمد بأسبوع أو أسبوعين. خضع مثله للتدريب السريع. تعلّم كيف يصوِّب سلاح الكلاشنكوف، وكُلّف مباشرةً بعد ذلك بمهمة الوقوف على باب المركز لحراسته. هكذا، يصبح الرفيق عليّ جزءًا من المركز. نُلقي عليه التحية في أثناء دخولنا وخروجنا منه، ونتوقف قليلًا معه لنستمتع بلهجته البقاعية المحبّبة. ثمّ نمضي وننساه تمامًا، إلّا وقت الطعام.

بعد استشهاد الرفيق أحمد بشهرين أو ثلاثة شهور، يحصل اضطراب داخل المركز، نشعر به، بسبب كثرة الاجتماعات للرفاق المسؤولين، وحضور رفاق آخرين إلى المركز، وخروجهم منه بسرعة، وهم متوترون متكتِّمون؛ إضافةً إلى انتشار الهمس والوجوم، وأنصاف الكلمات، وربما الإشاعات، كأنّ شيئًا خطِرًا يحدث لا يمكن الإفصاح عنه. في هذا المناخ «المُكهرب»، «شددت» أنا وزينب الرفيق أشرف، المسؤول عن خليتنا، نلحّ عليه: «ما الذي يجري يا رفيق؟»... والرفيق ملتزم الصمت أمام الرفاق القاعديين

أمثالنا. لا يريد أن يخرق تعليمات تنظيميةً صارمةً بعدم البوح بما يحصل. لكننا نصرّ... نريد أن نعرف، وهذا من أدنى حقوقنا، أليس كذلك يا رفيق أشرف؟ مرةً واثنتين وثلاثًا... لا نريد الوقوع في إغراء الخروج عن الأُطر التنظيمية، والتوجه بالسؤال إلى أحد المسؤولين الآخرين من الرفاق الذين نعرفهم جيدًا؛ لذلك نقول له، في شيء من «التهديد»: إن لم تقُل لنا ماذا يجري، الآنَ الآنَ، فسنسأل الرفيق «زوربا». الرفيق أشرف لا يستسلم بسهولة؛ لذلك، يأتي إفصاحه «عمّا يجري» بقِطْعٍ من الخبر، بأقدار قليلة منه، على نحوٍ أحتاج فيه أنا وزينب إلى ترتيب أقواله ترتيبًا منطقيًّا؛ حتى نخرج بالقصة على وجهها الصحيح: الرفيق عليّ، وهو أحد أبناء «عشيرة الحلايب»، بلغه من أهله في البقاع - من خلال ابن خاله الذي ينتقل بين بيروت والبقاع بسبب ضرورات عمله - أنّ ابن عمه عباس قد اختُطف عند حاجز لميلشيات «القوات» اليمينية في الكرنتينا، وأنّ خبرًا واحدًا لم يرشحْ عنه منذ يومين. فتكون ردّة فعل الرفيق عليّ مباشرةً وبسيطةً. يترك بوابة المركز حاملًا رشاشه الكلاشنكوف، ويتوجه إلى منطقة «خلدة»، ليكوّن مع ابن خاله هناك حاجزًا عسكريًا. يوقف السيارات، ويدقق في هويات المارة. وعندما يحظى براكب مسيحي، يخطفه ويذهب به إلى قريته البقاعية، ويعرض المخطوف على أهله بافتخار، ويتداول معهم أمْر تبادله مع ابن عمه العالق بين أيادي خاطفيه.

في هذه الأثناء، تُبلَّغ قيادة منظمتنا أنّ الرفيق جورج خُطف على حاجز في منطقة خلدة، من دون معرفة هوية الخاطفين. فيستنفر الجهاز الأمني في منظمتنا، وينظر مع الأجهزة الأخرى، الفلسطينية واللبنانية، في إمكانية أن يكون الرفيق قد «خُطف خطأً» على أحد حواجزهم. وبعد التحرّي، وبعد اكتشاف «هروب» الرفيق عليّ من

مدخل المركز، ومن المركز كلّه، ينسج الرفاق خيوط الحبْكة، فيتبين لهم أنّ الذي خطف الرفيق جورج ليس سوى الرفيق عليّ. ما يصل إلينا من الحكاية، أيضًا، أنّ الرفيق جورج أُفرج عنه، من دون مقابل ولا شروط، ومن دون أيّ نوع من القوة. أمّا الرفيق عليّ، فلم يعُد إلينا. وعلى الرغم من سؤالنا عنه، فإنّنا لم نعرف من أمره شيئًا. كيف تمّت «المفاوضات»؟ هل عاد ابن عمّ عليّ إلى أهله؟ أم أنّه ما زال مخطوفًا؟ ثمّ هل حوسب عليّ نفسُه على فعلته؟ وكيف؟ أبقيَ في منظمتنا أم طُرد منها؟ هل خضع لتحقيق قاسٍ؟ هل حمَته عشيرته؟ أمّا الرفيق جورج الذي نعرفه قبل الحرب مناضلًا نقابيًا نشيطًا في أوساط عمال برج حمود في الضاحية الشمالية، فلم أرَه إلا بعد مرور عشرين عامًا على هذه الحادثة. ألتقيه مصادفةً، وقد كسا الشيبُ شعره وهرم قبل أوانه. أريد أن أذكّره بالحادثة التي ما زالت تبهرني ولا أملك تفاصيلها كلّها:

- هل تذكر عندما خطفك الرفيق عليّ في عام 1975؟

- كلّا! كلّا!

لا يتذكر، لا يريد أن يتذكر.

حسنًا، وماذا فعلت بعد ذلك، أين مكثتَ؟ هل هاجرت؟ هل بقيت هنا؟ يفهمني الرفيق جورج أنّه ترك كلّ شيء في عام 1975، المنظمة والرفاق والبلد، ورحل إلى البرازيل حيث يملك أبناء عمومته معملًا للعصير. وهناك، وظّفوه في «الحسابات»، وهناك أيضًا تبين له بـ «الملموس» ماذا يعني «الاستغلال الرأسمالي»، ماذا يعني «فائض القيمة». لكنه لم يَعُد يبالي بذلك. يقوم بوظيفته كما يجب، كما يريد أصحاب المعمل. نجح هناك في تأمين منزل لأبويه

اللذين بقيَا في لبنان، وقد تزوّج بإحدى قريباته، وهو الآن هنا في زيارة فحسب. جورج أصبح إنسانًا آخر. «الحادثة» أيقظته - بحسب ما يعترف في نهاية حديثه - باستحالة الثورة والتغيير بهذه الطريقة «العشوائية» التي تورطت فيها منظمتنا مع غيرها من الأحزاب اللبنانية والفلسطينية.

الرفاق «الغرباء» الذين تدفقوا إلى مركزنا، وقد كانت ملامحهم تفاجئنا، «يُكوَّنون» سياسيًا - في ندوتين أو ثلاث ندوات - في «نظرية» منظمتنا، في «خطها السياسي» و«تحليلها الأوضاع». يستمعون إلى الكلام الذي ننشره بين الأهالي حول «برنامجنا» الهادف إلى إلغاء الطائفية وبناء الوطن العلماني. يوافقون على هذا الكلام كلّه، فيُعَدّون رفاقًا، ويحملون السلاح، بل «يتخصصون» في أمره، ويَأمن لهم جانبُنا.

إنها الحرب، أو الصراع في أوجِه؛ حيث لا يتحرك شيء من دون قتلٍ، حيث يحتاج القتل إلى أرواح فتيّة وأجسام بضّة. لا يهمّ كيف يفكّر أصحابها، ما داموا «مشاريع شهداء». من قضى منهم كان ذلك من نصيبه. ومن لم يقضِ بعدُ، فإنّه يتحوّل إلى نوع آخر من الشبيحة؛ شباب عاطلين من العمل، أو مهجَّرين، أو فاقدي الأفق... صاروا «شيوعيين» بعد ندوتين أو ثلاث ندوات، لا يختلفون عن «العناصر المسلحة غير المنضبطة» التي سوف نعهدها، إلا في درجة تشبيحهم، الناجمة هي نفسها عن ضعف تنظيمهم - العسكري خصوصًا - مقارنةً بقوّة التنظيمات الأخرى، صاحبة الشبيحة الأصليين.

«لا رفيقات في القيادة!» (1975)

الرفاق في مكتب الطريق الجديدة حيث المركز الرئيس لمنظمتنا. أُرسلت إلينا صحافية فرنسية من جريدة أُسّست منذ عامين برعاية الفيلسوف جان بول سارتر، اسمها **ليبراسيون**، وهي تمثّل اليسار الفرنسي المتطرف. جاءت الصحافية إلى لبنان لتستكشف إمكانات اليسار المتطرف اللبناني في بناء حركة تحرر نسوية. كنت أنا والرفيقة زينب، «وجه السحّارة»، كما يقول الرفيق أشرف، مكلفتين بمهمة الإجابة عن أسئلتها. وكانت الصحافية الفرنسية كارين معجبةً بـ «تجربتنا». قيل لها إنّنا، نحن الاثنتين نقوم تمامًا بالمهمات التي يقوم بها الرفاق، وإنّنا نتولى قيادة مجموعة عسكرية نسائية تابعة لمنظمتنا. خلال المقابلة، نشعر بأنّ أسئلتها تتضمن الإجابات عنها، وأننا نكابد معها عمليةً ذهنيةً شاقةً. فمن جهة، نريد أن تبدو منظمتنا على أفضل وجه - خصوصًا مع صحافة تنتمي إلى عائلتنا الفكرية نفسها - فنؤكد بابتسامات مرتابة، وبقليل من التردّد، أنّنا فعلًا «نخوض المعارك»، ونحمل السلاح مثل الرفاق؛ بدليل تصدّينا لـ «شائعة» الغزو الكتائبي تجاه مركزنا... فتكبر في رأسنا. وفي غفلة من أمرنا، نصدق هذه الصورة عن أنفسنا؛ كما تصدقها الآنسة كارين.

نفعل ذلك كلّه- أمام الصحافية الفرنسية - حبًّا لمنظمتنا، وتقديرًا للفرصة التي منحتنا إياها بالصعود إلى رتبة «قائدة فصيل

عسكري نسائي». لكنّنا نعلم في سريرتنا، في أعماق سريرتنا، أنّنا نلوي قدرًا مُهمًّا من الحقيقة. فلا نروي لها، مثلًا، الساعات الطويلة التي نقضيها في المطبخ يوميًا؛ حقيقة أنّنا نطبخ و«نجلي» ونكنس ونمسح، والرفاق مُشغلون الأوقات كلّها بالمهمات الحزبية، بل منكبّون على جلسات الثرثرة السياسية. وخْزة ضمير قليلة، سوف يكون لها مستقبل في ما بعد. أمّا الآن، فيجب ألّا يعلو أيّ صوت آخر، على معركةِ تلميعِ صورتنا أمام الصحافية الصديقة، حتى لو كان هذا الصوتُ صوتَ الضمير نفسِه.

المقابلة مع الآنسة كارين هي مثال لنوع من المقابلات أو التحقيقات التي ستنتشر لاحقًا في الصحافة الأجنبية، وكلها تزيِّن للقارئ عيوبنا وتعظِّم شموخنا. في هذه المسألة تحديدًا، لم يكن للتواطؤ بيني وبين زينب أيّ حدود. فحين يكون علينا أن نكتم ما بيننا من «إثمنا» المتعلّق بالمديح الزائف لفضائلنا اليسارية والتحررية، لا نقاوم رغبتنا المشتركة في الضحك من أنفسنا، بصفتنا حزبيات. عليهنّ، أساسًا، صقل كلامهنّ وتهذيبه وتشذيبه كلّما تعلّق الموضوع بطريقة منظمتنا في الخارج، أيِّ خارجٍ كان. وذلك باسم مبدأ تنظيمي معروف، موروث، «بلشفي»، مركزي، يقول إنّ «النقد»، أيْ نقد منظمتنا، يجب ألّا يخرج عن الأُطر التنظيمية، وإلا ضعفت منظمتنا؛ ذلك أنّ قوّة منظمتنا من قوّة «خطّها»، وقوة خطّها من دفاعنا عنه.

بعد شهر تقريبًا، عندما وصلتني أنا وزينب نسخة من التحقيق الصحافي، وأخذنا نتأمل صورنا فيه، ونحن واقفتان على ظهر المتراس الواقع في مدخل المركز، حاملتان الكلاشنكوف كأننا نتأهب لخوض معركة، ونقول كلامًا، لا يشبه واقعنا - خصوصًا

أننا نتصفح التحقيق ونحن مُشغلتان بتقشير البصل وفرْمه - تأخذنا نوبة ضحك مجنونة، مكتومة، يرفع من منسوبها أنّنا نقتسم وحدنا سرّ «الخديعة». فالتحقيق، بطبيعة الحال، يدغدغ غرورنا، ويقدمنا على أنّنا كائنات أسطورية لا تنتظر غير التاريخ ليسجّل مآثرها. لكن لم يكن ما جاء في التحقيق يشبهنا، ولم تكن الصُّور تلخّص واقعنا أو تعكسه.

ثمّة سبب آخر يضاعف من سخريتنا متمثّل في حادثة «تنظيمية» تحصل مع الرفيقة زينب بعد المقابلة الصحافية، قبل وصول نسختها إلى أيادينا. ففي أحد الأيام، يحضر الرفيق نديم، وهو أعلى مسؤوليةً من الرفيق أشرف، ويبلّغ الرفيقة زينب بأنّها «ترقّت» إلى رتبة «هيئة قطاع»، وهي رتبة أعلى من رتبة «خليّة»، ويطلب منها أن تحضر اجتماعها الأول مع الهيئة في الشقة السرّية لمنظمتنا الواقعة في شارع «مارون مسك» المخصَصة لتجميع التبرعات من الأدوية والأدوات الطبية المختلفة. تفرح زينب بطبيعة الحال، فها هي تحصد ثمار إخلاصها وتفانيها ودأبها على مواصلة مهماتها الموكلة إليها، بل مبادراتها إلى تحسينها، وابتداع غيرها... الاجتماع في اليوم التالي. تستعدّ زينب جيّدًا، تمشّط شعرها، ترتّب هندامها وتتأهب مرتجفةً من شدة حماستها، «مُستهولةً» هيبة «الهيئة القيادية» التي ستنضم إليها بعد قليل. في طريقها إلى الشقة، تطير الرفيقة زينب، تركض، لا تمشي، تكاد تقع مرات على الأرض. حتى هذه اللحظة لا تصدق... هي الآن في المنظمة منذ أربع سنوات. بدأت، مثلي أنا، «عضوًا» في حلقة، ثمّ «خليّة»، والآن «هيئة قطاع»؟! مع أنها مستعجلة دائمًا، ترى أنّ الأربع سنوات كانت ضروريةً؛ مثل تدريب عسكري إلزامي. تمرر في ذاكرتها قصة الرفاق الآخرين الذين لازموا بدايتها. هناك،

طبعًا، من هرب ومن تقاعس ومن هاجر... لكن أيضًا هناك من بقيَ، وكانت ترقيته أسرع من ترقيتها. هل يرجع سبب ذلك إلى أنهم رجال فقط؟ تسأل نفسها، وتشرد، متابعةً طريقها نحو الشقة... تصل إليها، تقرع بابها.. يطلّ الرفيق أشرف، المسؤول السابق عنها، فيفاجأ بها:

- «خير..!» ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟!

كان كأنه يرمي في وجهها قنبلةً. تتلعثم، تحبس كلماتها، تكرر أصواتًا غير مفهومة، «الرفيق... نديم... اجتماع... هيئة قطاع...». فلا يفهم الرفيق أشرف ما كانت تقصده بقولها. يعتريه توتّر، فالشقة سرّية، وأعضاء هيئة القطاع سرّيون أيضًا، حتى بالنسبة إلى الرفاق القاعديين مثلها. يبقى واقفًا على عتَبة الشقة، مستنفرًا، يريد أن يغلق الباب بسرعة، يريد تجنّب انكشاف أمرهما أمام الجيران وهما يتشاجران في أمر غير واضحٍ. زينب تفهم هذا كلّه، وهي تَعي أنّ تأتأتها المطوَّلة سوف تتسبّب بفضيحة تنظيمية كبيرة. تستجمع ما لها من شجاعة وفصاحة، فتتلو عبارتين دفعةً واحدةً في صياغة واضحة صريحة:

- الرفيق نديم أبلغني أنّني عُيِّنت في هيئة قطاع ساحل المتن الجنوبي، وأنّ عليّ الحضور إلى هنا للمشاركة في اجتماعها، في هذه الشقة!

تكون ردة فعل الرفيق أشرف مباشرةً، من دون سؤال قبلها ولا استفسار:

- لا مكان للرفيقات في هيئة القطاع! عودي إلى المركز، وسوف أعالج الأمر عند حضوري إلى هناك.

- كيف؟ والقرار الأعلى؟ والتعيين؟ والقرار الذي أبلغني إيّاه الرفيق نديم..؟

الرفيق أشرف مثل لوح من الخشب، لا ترمش له عين، ولا يُرخى له جَفْن، يكرّر تعليماته. يختصرها. يأمر زينب بالابتعاد عن ناظرَيه. تذعن زينب للأمر الحزبي، وتعود إلى المركز، باكيةً، بقوة وصمت. لا تفهم شيئًا ممّا حصل بشأنها:

- ألم يكن الأمر تعليمًا حزبيًّا؟ ألم أُبلَّغ بالترقية الحزبية؟ قولي لي يا رفيقة! فربما توهّمت ذلك من شدة رغبتي في تلك الترقية..! ما الذي حصل؟ وكيف يجرؤ الرفيق أشرف على قول أشياء مناقضة لمبادئنا؟ «لا مكان للرفيقات في هيئة القطاع»؟! كيف يجرؤ على عدم تنفيذ تعليمات الرفيق نديم؟

بعد يومين، يحضر الرفيق أشرف معتذرًا عن سوء تفاهم حصل بينه وبين «المكتب السياسي»، وهي الدرجة العليا التي أتى منها الرفيق نديم، ويدعو زينب إلى الاجتماع المقبل، مُرحّبًا بها.

تستنتج الرفيقة زينب، وهي تقارن بين الرفاق والرفيقات، أنّ على الرفيقة - إنْ أرادت أن تتدرَّج في الرُتَب الحزبية المختلفة - أنْ تكون بقيمة رفيقين، وأحيانًا ثلاثة رفاق، ملخصة فكرتها هذه بالقول:

- ثلاث رفيقات مقابل رفيق واحد! ناقص رفيقة إضافية، ويكون الوضع مشابهًا للزوجات الأربع!

لم تكن زينب تقول إلّا نصف الحقيقة. أمّا نصفها الآخر، وخصوصًا في غياب الانتخابات الداخلية في منظمتنا، واعتماد التعيين طريقةً للترفيع الحزبي، فإنّ المواصفات الضرورية لتحقيق

حُلم الترقي تقوم على صفات مختلفة تمامًا عمّا كانت تتصوره في سنوات سعادتها الثورية الأولى السابقة. كانت تتخيل وقتها أنّ الترقي الحزبي يحصل «أوتوماتيكيًا» عندما يكون الرفيق دؤوبًا نشيطًا مخلصًا مبادرًا... وهي تفهم الآن أنّه ينبغي للرفيق - كي يصبح قائدًا في منظمتنا - أن يتخلّى عن عفويته، وأن يتّصف بنوع محدّد من الذكاء يساعده على جسّ نبْض موازين القوى الفردية داخل كلّ هيئة، فيُعمل عقله السرّي لدراسة هذه الموازين. فضلًا عن ذلك، عليه أن يتّصف بذكاء يسخّره لتوفير وقته الثمين، وعدم إضاعته كلّه في النضال المتواصل؛ إذ ينبغي تخصيص جزء منه لـ «تعزيز» علاقاته بالرفاق القادة، أصحاب القرار في التعيين. وكل هذا لا يُعَدّ أمرًا ذا شأنٍ تقريبًا مقارنةً بتمتّع الرفيق بنوعٍ من الوجاهة، نوعٍ من الميل العميق - الموروث أو الفطريّ - للترؤُّس والاستحواذ والسيطرة... ما يرشحه تلقائيًا، من دون نضال استثنائي؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى نضال زينب، إلى رتبة أعلى بقرار أعلى. وبما أنّ الرفيقة زينب مجبولة على غير هذه الطبائع، فلن تطمح، بعد قصة «هيئة القطاع» إلى «الارتقاء» بدرجتها الحزبية، ولن تنتظر التعيينات الحزبية القليلة على كلّ حال، إلا ما تتوقعه من بعيد... في «لعبة احتمالات» بقيت، بالنسبة إليها، مادةَ سخريةٍ دائمةٍ.

رأس السنة (1975-1976)

اليوم هو آخر أيام عام 1975. وعلينا أن نحتفل به. الأيام التي سبقته كانت تضج بالقصف والقنص والمعارك الخاطفة في «الثغرة»، بين الشياح وعين الرمانة، على خط التماسّ بينهما، بوتيرة عالية؛ كأنّ عقول الجميع، يمينًا ويسارًا، تتابع الأيام الأخيرة للعام المنصرم، يومًا إثر يوم، وتضع في نهايته إشارةً إلى الروزنامة، أو سهمًا، تأكيدًا أنّ هذا اليوم لن يمرّ من دون تكبيد الأعداء خسائر فادحة. كأنّ صاحب هذا العقل يسجل بذلك «سنةً حربيةً»؛ على غرار تسجيل «سنة مالية» زاخرة بالإنجازات عند «جرْد الحساب». كان حريًا بضجيج هذا السلاح كلّه، المتصاعد مع دنوّ العام من آخره، أن يذكّرنا برأس السنة، بالاحتفالات التقليدية التي نقيمها كلّ عامٍ. لكن لا شيء من ذلك: يأتي اليوم الأخير، وفي أواخر صباحه، فقط، نقرّر أن نحتفل.

من أجل ذلك، علينا الإسراع في تحرير الممر الطويل الواقع في الطابق الأول، وهو ممرّ تقع على جوانبه غرف الصفوف. ينبغي تحريره من الـ «أغراض» المختلفة المرمية على حافته، ثمّ تنظيفه، بشطفه بالماء القليل المتوافر. وعلينا مدّ شريط مكبرات الصوت لنرقص على أنغام الموسيقى، وعلينا تأمين الطعام اللازم للرفاق المحتفِلين. وهذه مهمة لا وقت لدينا لتنفيذها بأيادينا، فنطلب

المعجنات المختلفة من فرن الشياح. وفي وسط النهار، وفي وقت كنت فيه، أنا وزينب، منهمكتين في تسيير شؤون هذا الإعداد، يأتي الرفيق أشرف ليقول لنا إنّ الاحتفال لن يكون كما نتصوره، بل علينا نقل الكراسي المركونة داخل الصفوف، وصفّها أمام منبر مرتفع نستحدثه ممّا هو متوافر داخل هذه الصفوف، يكون له كرسيّ وطاولة و«ميكروفون»... فبما أنّنا في حرب، سيكون الاحتفال برأس السنة هذه المرة بمحاضرة من الرفيق فريد، حول المستجدات. «طيّب والموسيقى..!؟»، تقول زينب، بأسًى: ألن نسمع موسيقى؟ يجيب الرفيق أشرف: بلى بلى، الموسيقى ممكنة، قبل حضور الرفيق فريد، أو بعد محاضرته. «والرقص..!؟»، تصرّ زينب:

- ألن نرقص أبدًا!؟ على الأقلّ دبكة!؟

لا يعرف الرفيق أشرف ما يجيبها؛ لا يريد أن يبدو «خفيفًا» أمام قيادة منظمتنا العليا، وهو من جهة أخرى، لا يحب أن يصدّ الرفيقة زينب؛ فهو لا يكاد يصدّق أنهما تصالحا وتفاهما، بعد أن مارسَا «النقد» و«النقد الذاتي»، بأفضل ما يكون من الأوجه، وها هي الآن تحرجه. يحدس قوّة حاجتها إلى الرقص، وربما حاجته هو إلى ذلك أيضًا؛ فيعِدها بأننا سوف نقيم الدبكة بعد محاضرة الرفيق فريد... نعيد الكراسي والطاولات إلى الغرف وندْبك:

- أنتم أعدّوا الأغاني المناسبة، وثبّتوا شريط مكبرات الصوت كما هو، وسوف نرى... وعلى كلّ حال هناك أعداد إضافية من الرفاق، غير رفاق المركز، سوف تشاركنا احتفالنا، فأكثروا من الكراسي.

في المساء، ونحن في باحة المركز، نرتاح قليلًا من عناء نقل

الكراسي والطاولات، «ندرْدش» مع الحرس، ندخن السجائر، ونتنفس هواء الشتاء المنعش، ونستمع إلى الأغاني التي يبثها شريط التسجيل من فوق، ويكون الاحتفال بالنسبة إلينا قد بدأ. لا ينقصنا غير قدوم الرفيق فريد. دقائق قليلة، ويطلّ علينا موكب من ثلاث سيارات، تتقدمها سيارة فخمة يركبها الرفيق فريد... يقودها سائق لا أعرفه، ملامحه جبلية، وإلى جانبه شخص آخر، غريب عنّي، نفهم بعد حين أنّه «مرافقه»، في حين كانت السيارتان الخلفيتان مكتظّتين جدًّا برفاق «من خارج المركز» سبق أن تحدّث عنهم الرفيق أشرف، وكان بعضهم مألوف الملامح. لا شكّ في أنّ الممر الذي خصصناه للاحتفال، سيضيق حتمًا بحشد صغير؛ بعد ما أضفنا المدعوين من أهالي الحيّ، وبعض الرفاق من الحزب الشيوعي.

أشرد أمام هذا المشهد. ثمّة شيءٌ ما يرنّ في أذني: الرفيق فريد أوّل مرة رأيتُه فيها كانت منذ عامين، حين كان يدفع ربع ليرة (25 قرشًا) لسائق «السرفيس» (التاكسي المشترك)، ويهمّ بالصعود إلى مدخل جامعة الدول العربية حيث كان يقام مهرجان احتفالي من المهرجانات السياسية اللبنانية - الفلسطينية، وكانت في ذلك الوقت كثيرة الحدوث. «الرفيق فريد... الرفيقة سهى»؛ هكذا تعرّفت إليه من خلال الرفيق غياث الذي كان يجاريه في العمر. الاثنان أكبر منّي بعشر سنوات، وتجربتهما أعمق من تجربتي، وكذلك ثقافتهما. وكان للرفيق فريد ميزة إضافية؛ فهو وسيم جدًا، ذو شعر طويل، وذو لحية طويلة أيضًا، وهو ساحر بغليونه، وبجبينه وطلّته المرتسمة عليهما ملامح الوجيه القروي الذي نشأ على الاعتزاز بنفسه، مقارنةً بالقرويين من حوله. وقد

كرّست سنوات دراسته في باريس هذه المقارنة لمصلحته، فرفعته إلى مستوًى أعلى. وكان الرفيق فريد يكثر من حركات «التواضع» مع الرفاق أمثالي، فيدعونا إلى فنجان قهوة في شقته الصغيرة في رأس بيروت، يعرّفنا إلى صديقته التي سوف يتزوجها بعد اندلاع الحرب، وبكلام عطوف، كأنه مجاراة لمستوانا الحزبي، أو الثقافي، الأدنى منه، يخبرنا عن تجربته في ثورات أخرى كان قد لحق بها قبل أن تخْفت...

هكذا كان الرفيق فريد في مخيلتي قبل هذه السهرة. أمّا الآن، فأكاد لا أعرفه. لقد تحقّقت «قياديته»، وعلى الطريقة نفسها التي كان ينقدها بحدّة، صار يتصرف مثل ياسر عرفات، يحتاج انتصاره على العدو إلى سيارة وسائق ومرافق وحشد من «الأنصار». نتجاوز بسرعة هذه الحالة الجديدة من الامتعاض. زينب، الحكيمة دائمًا، هي التي تفهم بغمزة عينٍ ما يجول في عقلي، تنبّهني إلى مزاجي المعكَّر:

- دعينا الآن من النقد يا رفيقة! فلنحاول أن «ننبسط» في هذه الليلة المباركة!

حسنًا، أقول في نفسي، لنتجاوز هذه الصغائر، ولنفرح بـ «الجَمْعة». ولنستمع إلى محاضرة الرفيق فريد، لعله ينيرنا بما لا نفهمه من هذه الحرب. نطفئ الأغاني دقيقة صمت حدادًا على أرواح شهدائنا، ثمّ محاضرة الرفيق فريد. من بدايتها حتى نهايتها، لا يقول غير ما قرأناه في تقاريرنا الحزبية، وما أبلغنا به الرفيق أشرف: تحليل الوضع الراهن، موقف منظمتنا منه، صحة خطّنا السياسي، ثوابتنا التي لن تتغير، مهما كلّفت من زمنٍ وتضحيات.

ما تغير الآن، هو طريقة الرفيق فريد في الكلام، فحسب. هي طريقة جديدة بالنسبة إليّ: تبدأ جملته بكلمتين، يقطعهما عند الثالثة... يتوقف... يأخذ وضعية من كان يفكّر؛ فتعتقد أنّه يفكّر فعلًا، وأنه سوف يفاجئك بفكرة جديدة، لكنه في النهاية يستعيد الكلمتين، ويربطهما بثالثة ورابعة... ليقول ما حفظه الجميع عن خطّنا السياسي؛ لكنّ مفعول «وضعية المفكر» التي تبتغيها هذه الطريقة في تقطيع الكلام له أثر أكيد فينا، على الأقلّ في تلك السهرة الميمونة. فعندما يستنتج الرفيق فريد، وهو في هذه «الوضعية التفكيرية» - بعد تكراره لتحليلات منظمتنا - أنّ النصر قريب، وأنّ إنجازاتنا كبيرة، وأنّ ثورتنا المسلحة إلى الأمام، وأنّه لن يخذلها يمين لبناني ولا إمبريالية ولا صهيونية... يعلو التصفيق الحار، وشعارات حروب التحرير الشعبية، وتفرض الدبكة نفسها في لحظات، قبل إزاحة الكراسي والطاولات الخشبية إلى الداخل. وبذلك، نتأكد أننا - لا محالة - سننتصر؛ فرحتنا عارمة راقصة دابكة، يعلو رصاص رأس السنة من حولنا، ولا نسمعه. في دواخلنا بهجة نخالها منبسطةً أمامنا، كأنها مستقبلنا الذي لا نعرف منه إلا الأفق المديد.

ما الذي يجعلنا نتأكد من أنّ نصرنا - لا محالة - قادم؟ تحليلات منظمتنا التي لا نقرأ غيرها إلا لتسفيهها؟ كبرياؤنا الحزبي، فَخرنا بخطنا وأفكارنا... وبأنّ كلّ شيء يأتي ليؤكد «صوابيتها» حتى لو كان هناك ما يخطِّئنا، ولو بالعين المجردة؟ أم هو عمرنا، ونحن في بداية عشرينياتنا، قوتنا البدنية، انطلاقة أجسادنا إلى حيث لا تحسب؟ أم هي جِدّتنا إزاء الحياة؟ خفّتنا؟ تهوّرنا؟ غرورنا؟ غفْلتنا؟ أم أنّ الموضوع كلّه يكمن في تلك «الهالة» التي يحظى بها

الرفيق فريد، تلك الترسانة البشرية المرافقة له، تلك الحشود، ذاك السائق، أو المرافق؟ فهذه المظاهر دليل على قوّة، على تمكّن، على قدرة في تقرير مسار الحرب التي نخوضها... وهذا ما يجعلنا نقبل بتلك المظاهر، في تلك السهرة، ولو على مضض. لا نحب تلك المظاهر، لكنّنا نعاملها معاملة الدواء المرّ الذي علينا تجرّعه لنفوز بالنصر الحتميّ على أعدائنا.

امتيازات الرفاق القادة (1976)

تسكت زينب على مضض، لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في الموضوع. وخلال بضع ليالٍ من تلك الليالي الشتوية الطويلة حين نحاول أخْذ قسط من الدفء في إحدى الغرف المخصصة لنومنا، تستلقي على راحتها، وتهمس لي بما يشغل بالها:

- هل تذكرين عندما حضر الرفيق نديم إلى مركزنا، منذ شهرين، بأيّ سيارة أتى؟ هو أيضًا مثل الرفيق فريد، كانت معه مرسيدس سوداء، ومرافق وسائق... ألم تلاحظي ذلك؟ أم أنك لم ترَيه؟ حسنًا... وماذا عن الرفيق رضا؟ لقد بات يحظى بمثل تلك السيارة أيضًا، وقد شاهدته في طريق الجديدة وهو خارج من مركزنا. إنّه لا يقلّ عن الرفيقين فريد ونديم تمتعًا؟ حسنًا... من أين جاؤوا بالأموال لشراء هذه السيارات؟ وإذا كانت مصادر هذه الأموال واضحةً، فلماذا لا يعلنون عنها؟ على الأقلّ داخل الأُطر الحزبية... ليس من الضروري أن ننادي بأننا حصلنا على الأموال، وبأنّ الدولة «الفلانية» أو المنظمة «العلّانية» تدعمنا بمبلغٍ مقداره كذا..! لكن يجب أن تكون الأمور واضحةً في ما بيننا. ليس من الضروري، أيضًا، أن يعمَّم الخبر على القواعد الحزبية، التي يمكن أن ترتبك، أو لا تفهم، أو تطالب لنفسها... لكن الهيئات العليا، مثل هيئة قطاع التي صرتُ عضوًا فيها، ألا يحقّ للرفاق فيها أن يعرفوا أنّ منظمتنا تتلقى أموالًا؟

حسنًا... علمنا أنّ أموالًا تأتينا من الجهة الفلانية، فكيف تُصرف هذه الأموال؟ من الذي يقرر توزيع بنود المشتريات؟ وإذا قالوا لنا إنّ هذه «الترسانة» كلّها، من سيارة قوية وسائق ومرافق، هي من لوازم حماية هؤلاء القادة، فهل يعني ذلك أنّ حياتهم أغلى من حياتنا وحياة باقي الرفاق القاعديّين؛ على أساس أنْ لا تنظيمَ ناجحًا من دون قادة له؟ ثمّ من انتخب أولئك القادة؟ أنتِ؟ أنا؟ الرفيق باسل؟ أو غسان؟ ونحن «ننحت» - سعيداتٍ - النهار كلّه من أجل توفير القرش فوق القرش، لنساعد بذلك منظمتنا «الفقيرة» التي تحيا من تبرعاتنا!

أمّا أنا، فأشرد في أقوالها... هذه أوّل مرة أسمع فيها هذه الأفكار، لكنّ زينب تلحّ عليّ:

- قولي لي! أجيبي! ما بكِ صامتةً مثل القطة التي أضاعت عشاءها؟

هكذا تمضي زينب بضع ليالٍ كأنّ مسًّا ألمّ بها. وفي غياب الإجابة عن تساؤلاتها، تشهر سلاحها الأمضى؛ السخرية، فتأخذ في التعليق على أسماء الرفاق: نديم، فريد، رضا... كلّها تليق بالمرسيدس والمرافق والسائق...

- ها! ها! ها! كان يحسن بهم أن يتّخذوا أسماءً أكثر واقعيةً؛ مثل عفيف، طاهر، شريف...

تنفجر ضحكًا، تُمعن في السخرية، وتتمادى في لعبة الأسماء: «أبو عفيف، أبو طاهر، أبو شريف...». لكنها تنتبه إلى ثِقل مزحتها، فتتصرّف كما يتصرّف المؤمن الذي يستغفر ربه من «إثمٍ» ارتكبه:

- «زدْتها» (كبّرتها) قليلًا... أليس كذلك؟ حسنا، عليّ أن أكون

أكثر جديةً، أكثر مسؤوليةً، سوف أتكلم غدًا في الموضوع مع الرفيق أشرف «على جنب»، خارج هيئة القطاع.

لماذا خارج الهيئة؟ أسألها: «أليس من المفروض أن تُناقَش الأمور كلّها داخل هيئاتنا، خليةً كانت أم هيئةَ قطاع؟». لا! لا! تجيب زينب: «قد يكون باقي رفاق الهيئة خارج الصورة تمامًا، أو أنهم لم يلاحظوا، لم يهتموا... قد تحمل إجابة الرفيق أشرف أمامهم شيئًا ما، يمكن أن ينفّرهم من المنظمة، أو يصدمهم، أو يخفف من حماستهم أو همّتهم. وأنت تعرفين، لا أسكت عن إجابة غير مقنعة، بل أبقى أسأل... ثمّ رفاق هيئة القطاع يبدون لي ضجرين... لا... لا... أفضّل أن يبقى السؤال بيننا، ولو موقتًا».

بعد هذه السهرة بأيام، أجد زينب في ممرّ الطابق الأول من المركز، تمشي ببطء، كأنها تتوسل أفكارًا جديدةً ربما لا تأتي، تهمّ بفعل شيء ما، ناسيةً عبء التوسّل، ثمّ تعود وتشرد ثانيةً، فتقف، لا تتحرك... فتنكفئ وتمشي كأنها نائمة. أسألها بقلق:

- زينب! زينب! ما بكِ؟ «شو صار» (ماذا حصل)؟

- لا شيء لا شيء... الليلة موعدنا، وسوف تعرفين «شو صار».

في الليل، نجلس بالقرب من بعضنا، نكاد نهمس، تروي لي زينب لقاءها الخاص مع الرفيق أشرف: لم يبدُ أنّه فوجئ بـ «ملاحظاتها»، ولم يكن حتى مستنكرًا لها. كأنّ الموضوع قديم بالنسبة إليه. تقول زينب إنّ تعابير وجهه، منذ البداية، فيها مزيج صعب - يكاد لا يُلمح - من التهكّم والاستصغار. كأنه ينطق بذلك، بل يقوله: «يا رفيقة كبّري عقلك!». لكنه يستجمع شعوره

بالمسؤولية ويعطيها إجابات برقيةً من قبيل أنّ هذه المظاهر هي «ترتيبات إجرائية» و«أمور خاصة بالقيادة»، و«أننا نحن، أعضاء هيئة قطاع، غير مُخوَّل لنا معرفتها». وعندما تهمّ زينب - في محاولة عويصة - بتفنيد كلّ إجابة بعينها، يقطع الرفيق أشرف كلامها، ويقول إنّ الوقت الآن ليس مناسبًا على الإطلاق لمناقشة مثل هذه الأمور. إنّنا، لو فعلنا ذلك، فسوف تضعف جبهتنا، ويتغلب علينا أعداؤنا؛ لذلك، ولمصلحة منظمتنا العليا، علينا السكوت عن هذا الأمر إلى حين انتهاء الحرب وانتصارنا على اليمين المُتصهين...

أسألها: «الآن، كيف تفكرين يا زينب؟».

فتجيب بثقة ساخرة:

- يا رفيقة سهى! الأمر واضح بالنسبة إليّ؛ إنّه مثل الحب الذي تقرأين عنه في الروايات، مثل تلك الحكايات الغرامية التي لا تتوقفين عن نبشها وسردها، بين كلّ فاصل نضاليّ وآخر. أولًا، عليك أن تنْكري عيوب الحبيب، كما تنكرين عيوب منظمتنا، حتى لو كانت صارخةً، بديهيةً. وعليكِ - مثل الحبيب أيضًا - أن تتصفي بعزْم الواقعين في الغرام لتحاولي تغييره من الداخل، من الداخل فحسب، وإلا أضعفتِ علاقتك به، وأضعته. وبما أنّنا نحب منظمتنا كما نحب الحبيب، ولا نتصور حياتنا من دونه ومن دونها، فما علينا سوى اقتفاء آثار العشاق والمناضلين الكبار، الصابرين والمضحِّين... حسنًا يا رفيقة، الآن نبقى مكتوفتَي الأيدي، ويكون دورنا هو حماية هذه المظاهر إلى أن يتحقق حلمنا الكبير.

لا أفهم تمامًا دعابة الرفيقة زينب، ولا أستحسنها هذه المرة:

- كوني أكثر جديةً يا رفيقة! إذا أردنا أن نحقّق هذا الحلم الكبير، ونبحث في مشكلة امتيازات الرفاق القادة، علينا أولًا أن نكون قد اخترناهم، أن نكون قد انتخبناهم... أليس كذلك؟ أمّا ألّا يكون بوسعنا اختيارهم ولا التدقيق في حساباتهم المالية، فهذا عين التناقض. ألم نتميز من الحزب الشيوعي بأننا منظمة تغلِّب الديمقراطية على المركزية في نظامها الداخلي؟ أليس هذا ما تردده أدبياتنا، وما لا يكفّ رفاقنا عن التباهي به أمام اليساريين الآخرين من جهة أنّنا ديمقراطيون قبل أن نكون مركزيين؟ انظروا إلى «جمالنا»!؟

لا تضطرب الرفيقة زينب، ولا تخرج عن سكينتها؛ فالأمور عندها واضحة وضوحَ الشمس:

- نعم، ديمقراطيون على الرغم من كلّ شيء. لو كنّا في الحزب الشيوعي وحدث فيه ما يحدث لنا الآن، ونحن في المنظمة، لكانوا قد وضعونا جانبًا... أو طردونا بلباقة. على الأقلّ، كان الرفيق أشرف هادئًا معي. وفي الحقيقة أرى أنّه على صواب. قال لي: «انتظري يا رفيقة نهاية الحرب!». أتعرفين معنى هذه الكلمة أو أبعادها؟ تعني أنّه هو، أيضًا، لا يستسيغ هذه الامتيازات، وأنّ الأمور لن تصطلح من دون انتخابات داخلية، لكننا لا نستطيع إجراء هذه الانتخابات... علينا الآن الانتصار على أعدائنا، في هذه الحرب التي لن تطول... ربما تدوم شهرين أو ثلاثة شهور، وتنتهي. ساعتها، نُجري الانتخابات، ونتكلم عبر أُطرنا الحزبية... على ظاهرة الامتيازات.

الأيام الأخيرة في مركز الشياح (1976)

الواقع، أن كلّ الذي يحصل خارج مركزنا، منذ بداية العام الجديد، يشجعنا على السكوت عن عيوب رفاقنا القادة، وعلى تأجيل تساؤلاتنا، حتى تهدأ المعارك: فنحن الآن لا نكاد نستوعب أنّ مخيم تل الزعتر قد بدأت محاصرته على يد الميليشيات اليمينية، حتى يأتينا في الأيام التالية خبر الهجوم على قرية الدامور بقيادة قواتنا المشتركة، أو هجوم قوات اليمين على «ضبية»، أو على «المسلخ» و«الكرنتينا». فضلًا عن معارك الفنادق التي صارت قديمةً، وحواجز الخطف «على الهوية» وخطف الديبلوماسيين الأجانب والهجوم العشوائي على قرى وحرقها ونهبها... وأكثر ما كان يُفرحنا، في هذه الانهيارات المتتالية، أن يتمرد ضابط، اسمه أحمد الخطيب، من الجيش اللبناني، ويعلن انشقاقه تحت اسم «جيش لبنان العربي»، ويبدأ بقصف القصر الجمهوري، ثمّ الهجوم على المخافر والسجون، وإطلاق الكثير من السجناء، تكّلله صرخة الزعيم الفلسطيني أبي إياد «إنّ طريق القدس يمرّ عبر جونية!»، ونحن نهلّل لهذا الخراب كلّه؛ لأنه يسهل علينا مهمات الثورة الجذرية التي تقوم على مبدأ الهدم ثمّ البناء من جديد.

كنّا نقوم بما علينا من مهمات داخل المركز أو خارجه... كأننا في طريقنا إلى روتين الحرب. قد يكون ذلك رغبةً في الخروج من

هذا الروتين، أو ربما فضولًا في اكتشاف زوايا نظرًا إلى ما حولي... وفي يوم آذاريٍّ مشمس، أتسلق أكياس الرمل التي نصبناها في مدخل مركزنا (المتاريس)، وأصل إلى قمتها التي ترتفع ثلاثة أمتار عن سطح الأرض، ثمّ أتدحرج في لحظة واحدة، وأسقط، وأفقد وعيي، لأجد أنّني بعد ذلك في المستشفى، وقد أُصبت بانزياح الغضروف ما قبل الأخير من العمود الفقري عن مكانه؛ أي ما يسمّى «الديسك». وكانت هذه المرة الأخيرة التي أرى فيها مركز الشياح بصفته مركزنا. فـ «الديسك» يشلّني، ومن مقتضيات علاجي أن ألازم الفراش من دون حراك - حتى لأبسط الحاجات - مدة شهر بأكلمه.

أنا الآن مُسمّرة في الفراش، ممنوعة حتى من الجلوس، بل إنّ عليّ طوال النهار أن أكون ممدّدةً، مثل لوح خشب. جارنا طبيب الأطفال يهتمّ بي ويتابع وضعي. أسأله عن كتاب يشرح إصابة «الديسك»، فيأتيني بكتابين، فيهما شروح ورسوم؛ كتاب بلغة مبسّطة وآخر بلغة أكثر تعقيدًا. ويقترح عليّ البدء بالكتاب الأول، ثمّ الثاني «إذا لم تزهقي من الموضوع..!». يا له من طبيب! الكتابان ألتهمهما، ويفتحان لي باب رياضة اليوغا، باب إنقاذي الوحيد من «عملية جراحية» كان الأطباء «المتخصصون» يهددونني بها: إنْ لم أُجْرِ العملية الجراحية، فسوف أُصاب بشلل نصفي...

لكن الأمور من حولي ليست بمثل وضوح القضايا الصحية. خارج البيت، كانت الاشتباكات مستمرةً، خصوصًا على محورنا، الشياح - عين الرمانة. ثمّة شيء ما يضايقني: صحيح أنّني عُدت إلى دفء البيت وأنّ ابني بالقرب منّي، وليس متشردًا بين المركز وجدّته... لكنني لا أشعر بالأمان. أقارن بين البيت والمركز، وأكتشف باستغراب شديد أنّ وجودي في المركز مع عائلتي، أكثر

أمانًا من وجودي في البيت. أقول في نفسي إنّنا، ونحن في بيتنا في الطابق الثاني، لن تنال القذائف منّا إذا بقينا بعيدين عن المطبخ وعن غرفة نوم ابني الواقعين في الجهة الشرقية، المعرّضَين لقذائف الميليشيات اليمينية. حسنًا، أَخْلينا المطبخ وغرفة النوم، وأصبح إعداد الطعام يتمّ في الممر المفضي إلى الصالون.

إضافة إلى ذلك، ثمّة أمرٌ آخر. في المركز، عشت طوال ثمانية شهور كأنني داخل شرْنقة حريرية؛ في دفئها الذي أحنّ إليه مع من يشبهني ويفكر مثلي. أمّا في البيت، فأستمع إلى آراء زُوّاري، من أهل وجيران، وجلّها يقع على نقيض ممّا أراه، بصفتي مناضلةً حزبيةً في هذه الحرب... قناعاتي راسخة طبعًا.. أصدّ الآراء.. لا أستمع إليها. أعرف ما سيقولون، أستبقهم في آرائهم، وأنا متسلحة بقناعاتي القوية، المُفْحِمة... في المركز، ثمّة الأمان الفكري أيضًا؛ إذ وُجد الجميع من أجل هدف واحد، خط سياسي واحد؛ والاعتراضات الجانبية التي نبوح بها هنا وهناك لا تلغي صحة خطّنا وتوجّهنا. لا أستطيع التفاهم مع من يختلف معي في الرأي السياسي؛ بل إنّني أصبح لا أتفاهم معه في شأن أمور أخرى، ما دام غير موافقٍ على آرائي وعلى مشروع منظمتي. هكذا ينتابني الحنين إلى المركز، أتخيل الرفاق والرفيقات هناك، وهم يتلقون قذائف معارك المحور خائفين، غير أنهم منسجمون ضاحكون...

في نهاية هذا الشهر الطويل، تزورني الرفيقة زينب، وهي - على غير عادتها - مقطّبة الجبين، متبرّمة، مرهقة؛ لا بدّ من أنّ في الأمر شيئًا ما حدث، أو كلمة قيلت. أسألها: «ماذا يا زينب؟ ما القصة؟». لا تتردد كثيرًا في الإجابة:

- جوّ المركز مختلف... لم يعُد كما كان. أعداد الرفاق تتراجع، كأنّ القيادة اتخذت قرارًا تنظيميًا بإخلائه شيئًا فشيئًا.

- ما السبب؟ أنتِ في هيئة قطاع... في هيئة عليا أيضًا، يجب أن يقولوا لكم، أنتم أعضاء الهيئة، ماذا وراء هذا الإخلاء البطيء؟

لكنها لا تملك إجابة، لا تعرف تمامًا. سألتْ في الاجتماع، وضعت الموضوع ضمن بنود جدول أعمال الاجتماع، إلا أنهم عندما وصلوا إلى هذه النقطة، لم يُعرها الرفيق أشرف أيّ اهتمام، وكذلك الرفاق الباقون. وأما الرفيقة زينب فتضيف إلى شكواها الخجِلة من رفاق الهيئة قصةً جديدةً، قائلةً:

- هل تتذكرين الرفيق باسل؟ ذلك الذي يتكلم الفرنسية مثل أهل باريس، والعربية مثل أهل الجنوب القدماء... باسل الذي كان على جبهة الفنادق، والذي كان يروي لنا قصص المعارك فتخرج الكلمات كما لو كانت لجدتي الجنوبية؟ ما أشدّ ما كنّا نستمتع برواياته الحربية ذات اللهجة البريئة!؟

نعم، نعم، أتذكره. ما به؟ هل حصل له مكروه؟ «كلّا... بل تبخّر...». كيف «تبخّر» يعني؟

- تبخّر... اختفى، لم يعُد له أيّ أثر في الجبهة، ولا في المستشفيات كلّها، ولا عند الخاطفين، ولا في المركز.

تقول هذه الكلمات في كثير من التشويق، تريدني أن أحزر معها المكان الذي يمكن أن يكون فيه الرفيق باسل، تريد أن تشدّ انتباهي؛ فهي أمام لغز «تبخّر» الرفيق باسل، كما أنّها تحب أن تكرر ذلك. وأهله؟ هل اتصلتم بأهله؟

- كلّا، كلّا، أهله لا يعيشون في لبنان، إنّهم مغتربون، هم مقيمون في ساحل العاج، وأنتِ تعلمين بقية القصة: الرفيق باسل يعيش في شقة وحده، بالقرب من الجامعة الفرنسية، الـ «إيكول دو لاتر»، الواقعة على خطوط التماسّ، وقد أخلاها منذ بداية الحرب، ولم يعُد له مكان غير المركز ومراكز أخرى تابعة للمنظمة. بطبيعة الحال، لم يحاول الرفاق تفقّده في هذه الشقة؛ لأنها عرضة لنيران مباشرة، وربما تكون تحطّمت.

بعد مرور أيام على زيارة زينب، علمت أنّ مركز الشياح قد أُخليَ تمامًا، وأنّ إدارة المدرسة استعادته من أيادي رفاقنا ورفاق الحزب الشيوعي. هل انتهت الحرب؟ طبعًا لم تنتهِ. صحيح أنّ على الجبهات «هدوءًا حذرًا» أحيانًا، أو وقفًا لإطلاق النار يساعد الناس على تيسير أعمالهم وتفقّد أملاكهم وتقدير خسائرهم، والتعامل مع هذه الحرب كأنها منتهية غدًا، غير مصدقين قدرتهم على الاستمرار من دون سبب، إلّا لأنهم «تعبوا» منها... لكنّ المعارك مشتعلة على الجبهات كلّها، وتصريحات قادة القوات الوطنية المشتركة ضدّ النظام السوري تنبئ بفصل جديد من المعارك. القوات العسكرية السورية ترابط على الحدود اللبنانية الشرقية، ولا يبدو أنّها جاءت لمؤازرتنا، كما كنّا نعتقد - في البداية - أنّ النظام السوري التقدمي الوطني حليف من بين حلفائنا الموزعين هنا وهناك. ربما يكون لإخلاء مركز الشياح علاقة بهذا التصاعد للهجة بيننا وبين من كانوا حلفاءنا من النظام السوري، بتغيير الخطط العسكرية، بإعادة التموضع من جديد في نقاط أخرى... غير أن الذي يحصل بعد الإخلاء لا يؤكد شيئًا من هذا. نُخلي المركز، ونعود إلى بيوتنا، وفي نفوسنا سؤال عمّا يمكن أن نفعله - نحن مناضلي المنظمة - في

جولة مختلفة من الحرب، ربما سترتب علينا أدوارًا مختلفةً... أمّا الآن، فنحن «ننعم» بالانتظار والترقب؛ لأنّ الحدود الشرقية من بلادنا يجتازها الجيش السوري، كأنه يحضّر لعمليات ما، لا نستطيع تقدير مداها، وإن حدسْنا أهدافها.

(بعد سنوات، نعلم أنّ الرفيق باسل عاد إلى ساحل العاج؛ بسبب أزمات هلعٍ انتابته في الجبهة كادت تحطم أعصابه. وهناك، اشتغل في تجارة أبيه المتوسطة، فوسّعها، وجمع ثروةً طائلةً).

من «الهدوء الحذر» إلى الملجأ (1976)

تدخلُ القوات السورية التي كانت ترابط على الحدود العمقَ اللبناني من الجهات المتاحة لها؛ من الشمال والشرق. ويصل القصف العشوائي إلى المحاور التقليدية، خصوصًا في الضاحية الجنوبية. يشتدّ الحصار حول مخيم تل الزعتر، وتقترب القوات السورية من نقطة دعمها للميليشيات اليمينية، صاحبة السبق في محاصرة المخيم وقصفه بأهله. ياسر عرفات وكمال جنبلاط يهاجمان القوات السورية، ويدعوان إلى النضال بجميع الوسائل لمقاومة غزوها بلادنا. لكنّ الحياة اليومية شبه الطبيعية تفرض نفسها، خصوصًا أنّ شريف الأخوي، ذلك المذيع الذي يزوّدنا بأخبار الأوضاع الأمنية، لحظةً بعد لحظةٍ، يُعلن من الراديو أنّ «هدوءًا حذرًا» يسيطر على بيروت.

نحن في أول حزيران/يونيو. عيد ميلاد شقيقتي كان البارحة. نقرر أن نحتفل به اليوم كلّنا عند أهلي في منطقة الكولا. إنها مناسبة عائلية أشتاق إليها بعد شهور من النضال والتشتّت العائلي في مركز الشياح، وشهر آخر مثبَّتة في الفراش. «الهدوء النسبي» هو أكثر من «وقف إطلاق النار»، وأقلّ من نهاية المعارك؛ هو يعني أنّه يمكنك التجول في شوارع المدينة، لكن ابتعد عن خطوط التماسّ، وانتبه إلى قذائف الهاون، أو شظاياها، التي يمكن أن تسقط على رأسك في

أيّ لحظة. نشدّ الرِحال، إذًا، من حارة حريك إلى المزرعة، أنا وابني وزوجي، وكلّنا حذرٌ وآذانٌ مترقبة لأزيز رصاصة أو صفير قذيفة.

نصل عند أهلي سالمين، فرحين لأننا ما زلنا أحياءً. خلال نحو ساعتين، ننسى الحرب الدائرة حولنا، نحتفل باجتماعنا، بعيد أختي، وبـ «الأطايب» التي أعدّتها أمّي. غير أن فترة «السماح» لا تدوم، ويتحوّل «الحذر» فجأة إلى هدير طائرات وانفجارات قريبة. نعلم عبر شريف الأخوي أنّ القوات السورية كانت تصبّ حممها على منطقة المدينة الرياضية القريبة من المزرعة. ثمّ تقترب أصوات الانفجار، كأنها تمشي على خطوط متتالية. الارتباك كبير بيننا، لا نعلم ماذا نفعل؛ النشرة الأمنية تفيد أنّ منطقة رأس بيروت حيث تسكن أختي «هادئة»، وأنّ القصف لم يمتدّ إليها. تحاول أختي إقناعنا بالذهاب معها إلى رأس بيروت، لكننا نرفض ونقول إننا سننتظر نهاية القصف... فتحمل أختي ابنها وتخرج مع زوجها ليأخذوا السيارة متجهين نحو منزلهم. أمّا نحن، فننتظر نهاية القصف ونحن جالسون كلّنا؛ نحن الثمانية - أنا وعائلتي ووالديّ وإخوتي - في الممر الداخلي، «الكوريدور» الذي نعتقد أنْ لا رصاصةَ تصل إليه ولا شظية.

الوقت يتأخر، والليل يحلّ، والقصف يزداد عنفًا، ولا سبيل إلى عودتنا إلى حارة حريك. فيكون الحل أن ننزل إلى «الملجأ». والملجأ هو الطابق السفلي لعمارة ملاصقة لبيت أهلي، يسكنها مستثمر عراقي، اشتراه من مالك البناية، وحوّله إلى «معمل» خياطة. تروي أمّي أنّ هذا المستثمر كان ينزل في الشهور السابقة مع عائلته إلى «المعمل»، عندما يشتد القصف على المنطقة حيث أقام ما يشبه غرفةً تحتل حيزًا ضيقًا منه. فالمعمل لم يتوقف طوال

هذه الشهور، على الرغم من كلّ شيء. الآن، وبعد أن تراجع «الحذر»، ليحلّ الخطر المؤكد، يدعونا الرجل إلى النزول إلى معمله حيث سبقنا أهل بنايته، من دون أن ينسى العائلة الساكنة إلى جوارنا في بيت قديم له حديقة وأشجار وبئر ارتوازية. لكن كيف؟ قبل أن نُنزل الأطفال إلى الملجأ نودّ تفقّده، والإتيان بالأشياء التي نحتاج إليها، إذا قررنا أن نمضي ساعات الليل فيه. لم يكن في بالنا، لحظةً واحدةً، أننا سنمكث فيه طوال أسبوعين. أمّا الآن، فكلّ ما في بالنا هو أن تمرّ هذه الساعات، وأن نعود في الغد إلى بيوتنا. عندما ننزل إلى الملجأ نجده على حاله. فالآلات مصفوفة كما لو أنّها ستدور بعد قليل. بعضها فقط أُزيح جانبًا. الأرض متسخة، ولا يوجد شيء يمكن الركون إليه. فاجأتنا القوات السورية ونحن في عزّ «حذرنا»؛ كان علينا إزاحة صفة «الهدوء»، والإبقاء على الحذر وحده، ليكون الحذر نفسُه حقيقيًا، من دون احتجاجٍ بأيّ إشارة قد تؤدّي إلى تفاؤل داخله. كان ينبغي الأخذ بالتحليلات المتشائمة التي تصدر عن منظمتنا، والتي تقول إنّ الحرب قد تطول. لكن من كان يتخيّل أنّ الذي سيطيلها - بهذا الزخم كلّه - هو الجيش السوري، حليفنا السابق؟

أمّا الآن، فعلينا في هذه الليلة إيجاد طريقة للنوم في هذا الملجأ. جارنا العراقي وعائلته «سكنوا» في الغرفة التي خُصصت لهم منذ شهور. وبما أنّنا لن نبيت في الملجأ إلا نومةً واحدةً، فإنّنا نزيح الآلات، ونصفّها بالقرب من بعضها بمحاذاة الحائط، ونكنس الأرض قليلًا، ونجلب بعض الفرش والأغطية والمخدّات، ومعنا «راديو الترانزستور» لمتابعة الوضع الأمني، و«الأنتريك»... تنقضي الليلة الأولى، بعد أن ينام الصغار، ونحن نتعرّف إلى بعضنا أكثر

فأكثر، نبدأ بـ «تحليل الموقف»، وننتهي إلى رواية قصص، هي خميرة الأيام المقبلة.

لا يشهد اليوم التالي أيّ هدوء، بل تشتدّ الانفجارات والقذائف، تقترب، ثم تبتعد، ثم تعود... وأخبار شريف الأخوي عن الجبهات الجديدة التي فتحتها القوات السورية تُدخل فكرة أنّنا عالقون هنا إلى عقولنا، وأنّ علينا تنظيم إقامتنا القسرية في الملجأ، نحن والعائلات السبع. بطبيعة الحال، يبدأ أوّل أمرٍ بالنظافة. فعلينا كنْس الملجأ، وشطْفه بالماء، ثمّ جلْب المزيد من الفرش والأغطية والمخدّات، لتفادي نقص الليلة الأولى، وبعض الكراسي الصغيرة؛ إذ لا يمكن أن نُمضي الليل، والنهار من بعده، ونحن مستلقون على الفرش، أو جالسون عليها، ورُكبنا إلى فوق. علينا، أيضًا، جلب مزيد من «الترانزستورات» من البيوت.

فالمراهقون من الأولاد لا يطيقون هذا الاستماع المستمر إلى أخبار القتال على المحاور، وتعليقاتنا عليها. وعلينا جلب بطاريات «الأنتريك»، وقنديل «اللوكس»، وأكياس الشمع، حتى لا ننقطع في حال... لا نعرف أيّ حال. النظافة الشخصية هي الأصعب؛ كيف نستحمّ؟ كيف نقضي حاجاتنا البيولوجية؟ في الملجأ، لا وجود لحمام، لم يكن يوجد إلّا شيء مثل حنفية عالية يمكنها أن تعبّئ بعض الغالونات أو القناني. وبما أنّ هذه الحنفية لن تَفي بالغرض، فعلينا، كلّما اقتضت الحاجة، أن نترقّب «هدوءًا حذرًا»، لنصعد إلى البيت مثل البرق، فنستحمّ على عجل، ثمّ نعود راكضين في الأمتار الخمسة الفاصلة بيننا وبين الملجأ.

هناك أيضًا أمرُ الطعام. في اليوم الأول نأكل كلّ ما تبقّى من

«أطايب» الليلة السابقة، إنما الآن، علينا تدبير الطعام. بائع الخضار المتجول يغيب في الأيام الثلاثة الأولى من الهجوم السوري على بيروت، لكنه يعود الآن، وهو يصدح بأعلى صوته في هذا الممر الذي يشهد عبورنا من بنايتنا إلى باب الملجأ. أبو خضر، هو اسمه، أو ربما هو اسم التسويق لخضرواته. فـ «أبو خضر» هو أشهر محلّ لبيع السندويشات على كورنيش المزرعة، وهو أيضًا، بهذا الاسم «الأخضر»، يمكنه أن يجتذب الشاردات من ربات البيوت. فـ «أبو خضر» نعرفه منذ خمس سنوات تقريبًا، نعرفه من صوته الذي يعبّر عن حالته النفسية بحلاوة تحثّ على التسلية. في أيام ما قبل الحرب، نترقبه من الشرفة، وهو يبدأ مشواره مارًّا في حيّنا، يصرخ بجوارحه، متحمسًا لـ «الكوسا» فحسب، معدّدًا فوائدها. وعندما يحلّ الليل، ويعود من الطريق نفسها حيث ننتظره أيضًا، يكون صوته خافتًا، تعبًا، محبطًا. مع ذلك، يصرّ على المناداة «كوسا..! كوسا..!»، كمن يردِّد تعويذةً ضدّ غلّة النهار، البائسة، القليلة. لقد كان «أبو خضر» - وهذا هو الأمر الأهمّ - يخاطر بحياته من أجل مساعدتنا على تنظيم شأن طعامنا: «كيف وصلتَ إلى هنا يا أبا خضر؟»، وجوابه:

- «شو بعمل يا بنتي..؟ بدّي طعمي هلعَيْلة» (ماذا أفعل يا ابنتي..؟ أريد أن أطعم عائلتي).

المشكلة الثانية، بعد الخضار، هي الخبز واللحوم. فالخبز يصل إلينا عبر ما نسميه «خطوط الإمداد الخلفية»؛ أي منطقة رأس بيروت وفردان التي لم تكن تُستهدف كثيرًا، حيث تعيش خالتي التي كانت ترسل إلينا «ربطات» الخبز مع أحد المتطوعين، وهو في أغلب الأحيان «ناطور» عمارتها. أمّا اللحوم، فهناك دكانة «أمّ عفيف» التي تتوافر فيها معلبات التون، والسردين، و«الكورن بيف»؛ وهي عبارة

عن لحمة معلّبة، غارقة في الدهن، يمكنك طبخها أو أكلها نيئةً، وهي لذيذة مع الحامض في قلب «سندويشة»، فيها كثيرٌ من الدهن، مع ذلك نحبّها، ونشتهيها بشحمها و«قرفها».

إنها تجربتي الأولى مع الحرب وأنا خارج المركز الحزبي. إنّه درسي الأول في الحرب الصريحة، غير المحمية بمبنى ولا تنظيم ولا مسلحين؛ الحرب بصفتها مواجهة مباشرةً مع الاحتمالات كلّها: وكلّها احتمالات أن تبقى على قيد الحياة، أن تُعدّ نفسك كلّ لحظة لاختراع طريقة جديدة تبقيك من الأحياء. أكثر ما أحفظه من هذين الأسبوعين في الملجأ هو تحضير «شنطة» تحتوي «راديو ترانزستور»، و«أنتريك»، وبطاريات، وأغطية، ومعلبات، وجبنة «بيكون»، وشمع، وصابونة، وكعك (بدلًا من الخبز)، وقنينة مياه، وغيارات لابني، و«شنطة» صغيرة للإسعافات الأولية... الشنطة موضوعة على باب البيت، حيث يمكن أن نتناولها ونحن هاربون منه. ومع مرور الوقت، وضعت على الباب «شنطة» إضافية، زرقاء، تحتوي صوري الفوتوغرافية كلّها. راودتني فكرة ضياع الصور أو احتراقها أثناء «الهريبة» الثالثة. ولم أطِقِ الفكرة، فوضعت «شنطة» الصور على الباب التي تنتظر فرارنا مع غيرها.

قصص أهل الملجأ (1976)

لا ينزل جميع أهالي حيّنا الصغير إلى الملجأ. يغادر رجل الأعمال العراقي - صاحب الملجأ - لبنان بعد يومين، تاركًا شؤونه ومفاتيحه لعناية الناطور. عائلتان سوريتان، أيضًا، تهربان من لبنان منذ بداية الجولة الأولى من الاشتباكات. وأربع عائلات لبنانية تلجأ في اليوم الأول من القصف السوري على بيروت إلى أقارب يقطنون في رأس بيروت. تبقى سبع عائلات، مكوّنة من ثلاثين شخصًا. وهذا عدد يتراجع في الأيام التالية، عندما «ينسحب» جارنا أبو سمير الساكن في الطابق الثاني من عمارتنا. أفاجأ بوجوده بيننا؛ فهو الذي لا يكاد يجيب عن تحيّتنا له عندما نلتقيه على السلّم. وكنت أنا وإخوتي نرى أنّه «سنوب». «بماذا يعتدّ؟»، نتساءل ونحن نقلد مشيته المشدودة، بجهد مختلَق؛ نضحك ونحن نتخيّله قد دخل بيته، وتوقف عن شدّ نفسه... كيف يصبح شكله؟ مع أنّه ذو جسم رياضي، وهو موظف في وزارة رياضية. ماذا إذًا؟ كيف يمكن أن يكون رياضيًا وجامدًا متجمدًا، كأنه داخل ثلاجة؟ المهم أنّ هذا الجار الذي نناديه «أبا سمير»، واسمه «نديم»، يدخل إلى الملجأ، بأناقة، مصطحبًا زوجته وابنه وأخاه وأمّه، حاملًا الكراسي والفرش والأغطية. يختار لنفسه زاوية شبه خفيّة، يوزع فيها الكراسي والفرش، يرسِّم «حدوده»، ويجلس صامتًا، بعيدًا عن خلية الكلام والمناداة والذهاب والإياب

التي وُلدت لتوّها داخل الملجأ. أبو سمير لا يتحمل الملجأ ولا أهله؛ «يصمد» أربعة أيام، ثمّ ينسحب مكابرًا، حريصًا على أناقته، بعد ما «تبهدل» أثناء إقامته معنا في الملجأ. حضر إلى الحيّ رجل سأل عنه - نعلم أنّه ابن خالته - غامر بالقدوم تحت القصف ليخرجه. خالته في الشمال تركت له ولأمّه، شقيقتها، بمصيف «مشتى حمود»، في عكار، منزلًا أفرغته من أجل عائلته، موقتًا، ريثما «تهدأ...». إنها المرة الأولى التي أرى فيها الضحكة على وجه جارنا المتكبّر. في غمْضة عين، يصعد مع زوجته إلى بيته، ويعود منه بعد دقائق وهو يحمل «شنطتين» إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة؛ ثمّ تقلع السيارة، بعائلته كلّها، ولا يعود إلى الحيّ إلا بعد أربعة شهور، مستفيدًا من ساعات «الهدوء الحذر»، لينقل أثاثه إلى طرابلس، بعد أن تمكّن - من خلال أحد أقاربه - من نقل مقرّ وظيفته إليها. بعد ذلك لم نعُد نرى أبا سمير، أو نسمع عنه شيئًا.

«أمّ أحمد»، جارتنا في الطابق الثالث، هي أيضًا، لا تدوم إقامتها في الملجأ. إنّها شبه مقعدة، لا تمشي أكثر من خطوتين. عندما نزلنا كلّنا إلى الملجأ، كانت ابنتاها تحملانها على كرسيّ. وجه أم أحمد السمح، الناصع البياض، لا يغيب عنه الرضا بنصيبها، على الرغم من الإرهاق الواضح الذي كان يبدو عليها. تجلس خارج دائرة «حدودها» المقررة، تنضمّ إلى حلقة الساهرين المتكلمين، تبتسم بخفر، وتستمع، لا تكفّ عن الاستماع. أولادها الثمانية ليسوا كلّهم هنا. البنات هنّ اللواتي يعتنين بها. والصبيان غائبون؛ منهم من تزوج وانتقل، أو سافر. ومنهم من لم يتحمل أجواء الملجأ منذ أولى لحظات هروبنا. أصعب ما تواجهه «أمّ أحمد» هو لحظة النوم. الفُرُش كلّها وُضعت على الأرض، وعليها أن تطويَ رجليها وتضغط

على ركبتيها لتتمكن من «النزول» من الكرسي إلى «الفرشة». وهذه عملية معقدة وشاقّة بالنسبة إلى ابنتيها. تحملانها بكلّ ثقلها منعًا لاحتكاك ركبتيها بالأرض، وتمدّدانها على «الفرشة» التي لا تجد فيها، على كلّ حال، أيّ راحة ممكنة. تبقى أم أحمد تكابد الآلام طوال ثلاث ليالٍ متتالية، ولا تُغمَض لها عينٌ. لا يمكن أن تستمرّ على هذا المنوال. قد تتدهور صحتها إذا طالت إقامتها هنا. والحل الوحيد هو أن تنتقل إلى منزل أحد أبنائها في حيّ رأس بيروت. لكن، قبل ذلك، عليها أن تخفف من حساسيتها المفرطة من كنَّتها؛ زوجة ابنها. وهذا ما يحصل بعد جهد هامس هادئ تقوم به الابنتان. أمّ أحمد امرأة طيبة هادئة، تخرج من الملجأ كأنها ذاهبة إلى دكانة أم عفيف؛ لا تريد أن تودّعنا، تقول إنّها ستغيب يومين تنام خلالهما، ثمّ تعود. لكنها تبقى هناك ثلاثة شهور، تنتظر في أثنائها تصليح الأعطال التي أصابت منزلها بشظايا القصف السوري.

جورجيت التي نعرفها منذ سكنّا العمارة، قبل عشر سنوات، هي وإلياس تزوجا في هذا البيت، بعد ما «هاجرا» من قريتهما في الشمال. اشتغل إلياس في المنطقة بخراطة الآلات الصناعية، هو وشريكه ابن قريته، وربما قريبه. يعمل بدأْب؛ فهو يخرج باكرًا ويعود مساءً، محمَّلًا بـ «الرزقة» اليومية. توسعت أعمال إلياس وشريكه، فاشتريا آلةً جديدةً، تحسّن عملهما. إلّا أن «محل» الخراطة يقع على ما صرنا نسميه الآن «خطوط التماسّ»، بالقرب من «الثغرة»، في محور الشياح - عين الرمانة التي اعتاد مسلحونا التسلل إليها للهجوم على قوات الكتائب. ومنذ بداية هذه الدورة من الحرب، تحطّم المحل، وتحطمت الآلات. دُمِّرت تضحيات إلياس كلّها، في يومين. نحن نعرف شيئًا من ذلك؛ لأنّنا جيران

جورجيت التي نصادفها كثيرًا ونحن صاعدون إلى بيتنا في الطابق الثاني. تقول أمي إنّها شعرت بأنّ إلياس لم يعد يظهر، لا باكرًا ولا ليلًا. لكنّ جورجيت الآن تروي تفصيلات التفصيلات، ونعلم منها أنّ إلياس، بعد «خراب البيت»، قرّر الرحيل إلى السويد، بنصيحة من جارنا «أبي غاريوس» الذي سبقه إلى هناك. ونعلم، كذلك، أنّ جورجيت عليها انتظاره هنا في لبنان، ريثما يجد لنفسه عملًا، فـ «يسحبها» مع أولادهما الثلاثة إلى هناك. وعلى جورجيت، في غياب إلياس، إعالة هذه العائلة كلّها بمفردها، من دون مساعدة أقارب، ولا إخوة. لديها إلمام غير بسيط بشؤون «التجميل». فهي، كما تقول، تعرف من التجربة، كيف «تنْتف» بالسكّر، كيف «تنتف» الحواجب، وتصفّف الشعر، وتضع عليه الصبغة، وتنظّف الوجه من البثور والأوساخ...

بعد سفر إلياس، بدأت جورجيت، خلال «دوام» أولادها، تجول بين الجيران وفي الحيّ، تعرض الخدمات، وتأخذ المواعيد في المدرسة، لتتحوّل، بعد أقلّ من شهر، إلى أشهر مزيِّنة نسائية في حيّنا. جورجيت الآن، في الملجأ. هي أكثر الأشخاص ترتيبًا ونظافةً، يسير أولادها على إيقاعها المنضبط، ترسّم «حدودها». هي أيضًا، بأدقّ ما أُوتيت من انتباه، تتابع روايتها، بآمال كبيرة، تنتظر إلياس الذي يرسل إليها المراسيل، يصف فيها حياته الجديدة في السويد. ما أكثر تنظيم تلك البلاد، إنّها هادئة مثل الساعة. يقلق عليها وعلى الأولاد، لكنه متفائل. انتظار جورجيت لا يطول. في نهاية العام يطلب منها إلياس أن تجهز نفسها. تسحب إفادات مدرسة الأولاد، تبيع أثاث المنزل، تصدر جوازات سفر... هذا كلّه تُعدّه جورجيت بحماسة ودقة. وفي بداية عام 1977، تترك لبنان إلى السويد، مع

أولادها الثلاثة. وبعد ذلك لم نعُد نسمع أخبارها إلا عن طريق «أمّ غاريوس».

أمّ غاريوس هي نقيض جورجيت. هي الفوضى بعينها. زوجها، أبو غاريوس، غادر إلى السويد منذ سنتين. يرسل إليها من هناك ما يغطّي تكاليف العيش، هي وابنها الوحيد غاريوس. ترفض أمّ غاريوس الالتحاق بزوجها إلى السويد. هي لا تذكر سبب رفضها، إلا أن جميع تصرفاتها في الحيّ تدلّ على سرّها غير المكتوم. فأمّ غاريوس؛ الصبية السمراء، صاحبة العيون الحوراء، بحَوَل خفيف في عينها اليسرى، ببياض عينيها الشاسع وسواد سوادها الذي يضفي عليها فتنةً وشهوانيةً، بشعرها المتدلي الأسود الليلي، الواصل إلى خصرها، ومشْيتها المدلّلة، وحركة ورْكها وصدرها التي تقلد بها الممثلة المصرية «هند رستم»... أمّ غاريوس هذه، صاحبة اللسان «الفلْتان»، كما نقول، تنزل مع ابنها إلى الملجأ كمن يستعدّ لصيد ثمين. تنظر إلى الشبان العزّاب حولها. وفي هذه اللحظة، تفرز من بينهم من يعجبها، و«تنتقي» منهم أحدَهم، لتقع عينُها الحَولاء الآسرة عليه. ونحن نتابع رقصة العيون، نتخيل الطريقة التي سوف تترتب بها الأمور، لتحصل على اللذة التي لا تكتم لحظةً واحدةً حاجتها الملحة إليها؛ فنأخذ في التخمين: يا ترى.. هل تتم «العملية» في إحدى زوايا الملجأ؟ في بيتها؟ ومتى؟ في أواسط الليل؟ في أواخره؟

«المجنونان»
أبو عمر وجانيت (1976)

أبو عمر لا يقلّ جنونًا عن أمّ غاريوس. جنون مختلف، نعرفه قبل الحرب والملجأ. هو موظف في الجمارك، في المطار تحديدًا. اعتاد الخروج إلى وظيفته كلّ يوم، في تمام السابعة والنصف صباحًا، والعودة إلى بيته في الثانية ظهرًا. وبما أنّنا جيرانه في العمارة نفسها، ولا يفصل بيننا وبينه إلّا طابق واحد، كان بوسعنا متابعة خطواته كلّها، على نغمة الصرخات التي ينهال بها على «أمّ عمر». كلّ يوم كانت «الحفلة» نفسها. ففي الصباح يصرخ شاتمًا «أمّ عمر» بالألفاظ كلّها، على بطئها في إعداد «ترويقته»، أو بسبب أنّ «زوّادته» ناقصة، أو بسبب كَيِّ قميصه و«طقمه» الرسميَّين. كنّا لا نسمع صوتًا لـ «أم عمر». وفي الظهيرة، كذلك، عندما يعود، تعلو صرخته، بسبب ملحٍ زائد أو خضرة نيئة، أو لحمة غير «مستوية»، أو ثوم زيادة... أمّا «أمّ عمر»، فتكون صامتة، من دون أن تردّ. كانت الأوقات الأكثر صخبًا عندما يعود أولاده الثلاثة من المدرسة، بعد أن يكون هو قد أكل ونام واستراح، فتكون حيويته مكتملةً للانكباب عليهم، شتمًا وضربًا وصراخًا... كنّا نحزن في شأن هذه العائلة التعيسة التي يحكمها دكتاتور صغير غبي، صوته عالٍ أكثر ممّا ينبغي، ومفرداته غنية بألوان التشنيع والتسفيه.

كان أبو عمر شغوفًا بمقاتلة من حوله. ثمّة شيء ما في وظيفته، يشجعه على ذلك. ربما يعتقد أنّ طقمه ومسدسه الذي نصفه دائمًا بـ «الفارغ من الرصاص»، يضعانه في مرتبة «سلطان زمانه» الجديد. تكمن موهبته الفذة في إثارة مشكلة من «لا شيء»، وفي التعامل معها بالطريقة الكاريكاتورية التي اعتاد أن يتعامل بها مع أهله... هذه الموهبة تنفجر في الملجأ، تتّضح تعبيراتها المخيفة المضحكة. يدخل أبو عمر الملجأ. يأخذ أبي جانبًا ويسأله، عابسًا، عن المستثمر العراقي الذي أهدانا الملجأ، وكأنّه يتحرى عن لصوص يحاولون تهريب بضاعة ممنوعة من المطار. يُطمئنه أبي بكلمات طيبة، ويدعوه إلى أخذ مكانه بيننا، وإلى تحديد «مكانه» هو وأفراد عائلته الأربعة.

في الأيام الأولى من العيش القسري في الملجأ، ينطلق لسان «أبي عمر» بأنواع من «التحليلات» السياسية المرفقة بالشتائم والأدعية القاتلة ضدّ القوات السورية التي دخلت عنوةً إلى لبنان لإنقاذ أحزاب المسيحيين، والتآمر على المسلمين والفلسطينيين أصحاب الحقّ. سكان الملجأ كلّهم لا يخالفونه الرأي، وإن كانوا محرجين من صفة «المسيحي» التي يلصقها بأحزاب اليمين. وكلّما جاء بهذا النعت، كان «أبو أحمد»، أو أبي، يتلفّظان بكلمة من قبيل «إخواننا المسيحيين»، أو «الطائفة الكريمة»، وينظران إلى جيراننا المسيحيين بعين العطف؛ ذلك أنّهما لا يريدان إشعارهم بالحرج. وبعد كلّ شتيمة يتلفّظ بها أبو عمر ضدّ «الأحزاب المسيحية»، يعود الاعتراض المهذب؛ لكنّ أبا عمر ماضٍ في «تحليلاته» التي تزداد حدّةً كلّما اشتد علينا القصف الجوي والبري.

في أحد الأيام، تشجّع «أبو أحمد». أخذ «أبا عمر» من ذراعه إلى زاوية من زوايا الملجأ، وهمس في أذنه بأنّ عليه الانتباه جيدًا إلى

كلامه؛ لأنّ نصف سكان الملجأ مسيحيون، ولا يجوز أن نشعرهم بهذه العداوة كلّها؛ فلا هم أعضاء في أحزاب اليمين المسيحي، ولا هم «يتعاطون» السياسة، بل إنّهم لا يعرفون معناها. لا يذعن أبو عمر طويلًا. يخفت صوته ولهجته، وتغيب الشتائم والتنديد والتقريع من قاموسه، لكنّ طبعه يغلبه في اليوم التالي؛ فيعود الشتّام السبّاب إلى لغته المألوفة، وييأس الكبار فلا يستمعون إليه. لكنّ «أبا عمر» لديه موارد كثيرة. فعندما يشعر بأنّ الجيران منكفئون عنه، يقوم بعمل يعتقد أنّه بطولي، كفيل باسترداد الاهتمام إليه. وفي إحدى الليالي، نراه قادمًا ومعه رشاش كلاشنكوف، يضعه بالقرب من مخدته، على المساحة التي اختارها للنوم، ويقوم في اليوم التالي، نشيطًا مبتهجًا، حاملًا الرشاش على كتفه داخل الملجأ. ونحن كلّنا في عجب؛ فأيّ حاجة إلى مثل هذا السلاح هنا؟ ممَّن يعتقد أبو عمر أنّه يحمينا؟ نظراتنا إليه فيها خشية وريبة؛ ربما يكون مجنونًا ونحن لا ندري، أو ربما أصابه العيش في الملجأ بالجنون... لكنّنا متحفزون، يَقِظون، ننتظر طلقة الرصاص الطائشة، نبتعد عنه، نتجنّبه، هو وأفراد عائلته.

في أواسط النهار، نسمع فوق رؤوسنا هدير طائرات سورية كانت تقصف، أو هي في طريقها إلى القصف. ماذا يفعل أبو عمر؟ يهرع إلى باب الملجأ، حاملًا رشاشه، ويبدأ بإفراغ رصاصاته على الطائرات المحلقة من بعيد، صارخًا، بكل ما تملك حنجرته من قوّة، بأقذر الشتائم ضدّ القوات السورية وضدّ أمهات الطيارين. في هذه اللحظة، يخرج جميع سكان الملجأ إلى الشارع، ذاهلين، حائرين؛ أيضحكون منه أم يلومونه؟ يخرجون، في الحقيقة، لهذين الأمرين معًا... لا يفهم أبو عمر ردّة فعلنا جميعًا، أو يفهمها، بعد ما نشبعه سخريةً واستنكارًا لـ «عَملته» الغبيّة. لكنّ الواضح أنّ أبا عمر بعد

هذه المحاولة «عرف حدّه، فوقف عنده»، كما يخلص إلى ذلك «أبو أحمد»؛ فلا هو أصاب طائرةً سوريةً، ولا أثار إعجابنا؛ فيقرر أن يركن في أبعد زاوية من الملجأ، ويخلد إلى الصمت، حتى نهاية الهجوم السوري على المدينة.

«جانيت» قصة أخرى؛ إنّها ليست من جيران إحدى العمارتين. بل تسكن قبالتنا تمامًا؛ لذلك نراها من نافذة مطبخنا منذ أن سكنّا هنا. بيتها فيلا صغيرة، من حجارة وقرميد أحمر وحديقة صغيرة مع أشجار وبئر ماء داخل سور قديم تعلوه أشواك يُفترض أنّها تحميه من اللصوص. بيتٌ شاعريٌّ؛ من يدخله كأنّه يدخل قصيدةً قديمةً رومنطيقيةً، يجمع جميع أسباب الحزن اللذيذ، ولا يحتاج إلّا إلى بعض الغيوم والعتْمة ليحييَ أجواء روايات الأختين إميلي وشارلوت برونتي الإنكليزيّتين. منزل جانيت يفتنني أنا وإخوتي. نودّ أن نعرف أشياء عنه؛ وما يسهّل أمرنا أنّ ابنتها الكبرى، كلودين، في مثل أعمارنا، فنتزاور، ونتكلم وتخرج قصة جانيت الغريبة.

هذا البيت السحري هو لوالد بطرس زوج جانيت، وقد ورثه عنه. العائلة سعيدة بأولادها الثلاثة، وباشتغال الأب في استيراد الخشب. قبل الحرب بثلاثة أعوام، وقع ابنهما الأصغر، شارل، في البئر، وتُوفي. فقدت جانيت شيئًا من صوابها، وباتت لا تريد السكن في هذا البيت. وصارت تعيش فيه كأنها غريبة؛ لا تنظفه، لا تحسّنه، سدّت البئر فحسب، وغطّتها بقطع من الحجارة الثقيلة وأغصان الأشجار. بطرس أيضًا لم يتحمل الصدمة. ولم تعُد تجارته مزدهرةً بمقدار طموحاته كما كان الأمر في السابق. فيقرر ساعتها السفر إلى البرازيل حيث ابن عمه، لينشئ هناك تجارةً جديدةً، وكان يأمل أن

«يسحب» جانيت والأولاد. قبل الحرب، لم تكن جانيت تتوقف عن التكرار أمام أيّ شخص تصادفه أنّ جواز سفرها والفيزا إلى البرازيل جاهزان، وأنها لا تنتظر إلّا نهاية العام الدراسي بالنسبة إلى ابنها بيار حتى تلتحق بزوجها. لكن عندما ينتهي هذا العام، لا تسافر، فتقرر ألّا تسجله في العام التالي في المدرسة، حتى لا تفوتها الأوراق المقبلة من البرازيل، فتضطر إلى أن تنتظر أيضًا حتى نهاية العام الدراسي، وهكذا... حتى عاش بيار عامين ونصف من دون مدرسة، يسرح ويمرح سعيدًا في البيت، لا يلتزم بفروض أو دروس. فصارت جانيت أمثولةً بيننا، عن الانتظار العبثي وعن جنون المأساة.

تنزل جانيت إلى الملجأ وعيونها تائهة، كما هي عادةً. يقودها ابنها وابنتها، يرتّبان لها الجلسة، يضعان على علبة كارتون جلباها معهما أدويتها المزمنة، مع قنينة ماء، و«ركوة» قهوة، وعلبة سجائر تدخنها جانيت بشراهة. كانت تبدو مثل طفلة أمام ولديها، وهما يمسكانها عن جنونها، أو يضبطان إيقاعه. تقول لي كلودين إنّ آخر رسالة لوالدها من البرازيل كانت منذ بداية الحرب. وبعد ذلك، أصبحوا لا يعرفون عنه شيئًا. أمّا جانيت، فبقيت تبدأ نهارها بالقول إنّ اليوم ستصل رسالة من زوجها، ومعها «الفيزا» إلى البرازيل. وكلودين لا تصدق. تحاول إقناع أمها بإدخال أخيها بيار إلى المدرسة، من دون جدوى. تقول ساخرةً إنّ تعليم البنات اليوم صار أهمّ من تعليم الصبيان! ونحن «ندردش» في نهاية الليل، تقول كلودين إنّ الذي قرّب جانيت من الجنون هو حادثة حصلت في البناية الواقعة في آخر الشارع، في أثناء بداية الحرب، كانت ضحيتها صديقتها الحميمة «أمّ إلياس»، بطلقة رصاص واحدة. لم تُعرف

دوافع الجريمة، ولا اكتُشف الجاني. لكن جانيت رأت فيها إشارةً إلى خطر على المسيحيين في الحيّ، لا تتجرأ على البوح به. أبقَت على سمومها هذه في بواطنها، وحولتها إلى هذيان مستمر.

(بطرس لم يرسل شيئًا من البرازيل، وجانيت لم تيأس من الفيزا. لكنها أدخلت بيار إلى المدرسة، وباعت البيت السحري، واشترت شقةً في «مار الياس» غير البعيد عنّا. وعندما كبرت كلودين وتزوجت من صديق طفولتها روبير الذي كان قد هاجر إلى كندا في أثناء الحرب، انتقلت جانيت مع ابنها بيار إلى هذا البلد، ولم نَعد نسمع عنها شيئًا).

سقوط مخيم تل الزعتر الفلسطيني

(1976)

الرفيق عباس من مدينة صور الجنوبية. يعيش فيها ويناضل أيضًا. إلا أن زياراته المنتظمة إلى بيروت تجعله رفيقًا حاضرًا بيننا، خصوصًا في أوقات السمر والسهر، عندما نستعد لسماع الحكايات، بدلًا من التحليلات. كلّ ما في عباس عجيب، بدءًا باسمه. فهو معروف بيننا بالـ «ثلاثة عشر» (نلفظها في عاميّتنا «تلاتْعَش»). يأخذنا سؤالنا عن أصل هذا الاسم، كلّ مرة، إلى قصة من قصص حياته. وكان يجيب أنّه وُلد في الثالث عشر من آب/أغسطس، وأنّ خروجه إلى الدنيا كان «عسيرًا»، فترافق مع تعييره بـ «نحس» ما يرمز إليه الرقم «13»؛ ونحن نضحك، مستغربين من فرادة «منحوس» لا يكفّ عن الابتسام. وكان، تارةً أخرى، يجيب أنّ ترتيبه بين إخوته الذين سبقوه، هو الثالث عشر والأخير. يقول، مؤكدًا: «نعم». إنّ «أمي أنجبت ثلاثة عشر ولدًا؛ عشر بنات وثلاثة صبيان»، فيسبح خيالنا في السهرة، ونلحّ عليه في معرفة تفصيلات تلك الحياة التي أمضاها، في زحمة بيت صغير يقع على شاطئ البحر حيث يعمل أبوه صيادًا. كيف كذا؟ وكيف كَيْت؟ يسرد ضاحكًا، كأنّه لم يُصبه بؤسٌ، ولا عوزٌ، ولا تعبٌ.

في سهرة أخرى، يقول الرفيق «تلاتْعَش»، إنّ اسمه كذلك؛

لأنّ معدله الثابت في المدرسة هو «13». لا يزيد ولا ينقص أيّ مرةٍ. والأغرب هو ذاك التفسير الذي يعطيه عباس أحيانًا أخرى؛ إذ يتخيل نفسه، منذ اللحظة الأولى التي يدخل إلى المنظمة، أنّه سوف يسجن يومًا ما، لدى الإسرائيليين، أو المكتب الثاني (الاستخبارات اللبنانية)، وسوف يحمل الرقم «13». لكنّ التفسير الأكثر عبثيةً، والمحبَّب إليه، والذي يكرره، مضيفًا إليه كلّ مرة بهارات إضافيةً، هو أنّه بصفته معجبًا بالممثل الأميركي شين كونري، بطل أفلام التجسس الشهيرة المستوحاة من روايات البريطاني يان فليمينغ، لم يعجبه إطلاقًا أن يحلّ محلّه روجر مور «الأقل منه رجوليةً»، كما يقول، نكايةً بهوليوود وبخياراتها المسيئة إلى الرجولة. يرمي الرفيق عباس قطعة زَهْر النَرد على صندوقها الخشبي الصغير، بعد أن يقبّلها، ويقرر أنّ اسمه «تلاتْعَش» أي الرقم «13»، الرابح دائمًا، وأنّه هو المنتصر على الممثّلين: شين كونري وروجر مور.

ما كان يمكن لاسم الرفيق عباس الرقمي أيّ أهمية لو لم يحصل معه ما يؤكد أنّ اسمه «تلاتْعَش» فيه قدر من التخمين لمجريات حياته اللاحقة. فهذه المرة، لا يحضر إلى بيروت للسهر ولا للضحك أو النميمة. وجهه المكْفهر يدلّ تقريبًا على الهدف. يقول لنا، كأنه يهرول، إنّه أتى لإنقاذ خالته من مخيم تل الزعتر بعد أن تعرّض للقصف العنيف. لم تتحمل أمّه أن تكون أختها عالقةً هناك مع زوجها الفلسطيني وأولادها الثلاثة. يتبرع «تلاتْعَش» بالذهاب إلى المخيم، متسلحًا بمعارفه من رجال المقاومة الفلسطينية، وبدرايته بأزقة المخيم. فأمضى فيها أيامًا متقطعةً، وزاره عشرات المرات. يشدّ الرحال، إذًا، إلى المخيم. ويقول لنا عبر الهاتف إنّه سوف يعود مع خالته وعائلتها خلال يومين على أقصى تقدير. لكن ما إن يحلّ

اليوم الثاني لقدومه، وهو يستعد للخروج - بعد أنْ أقنع زوج خالته بالرحيل - وينتظر ترتيبها «أغراض» عائلتها الكبيرة، حتى يبدأ حصار المخيم على يد قوات اليمين اللبناني المدعوم - كما سنعلم لاحقًا - من القوات النظامية السورية التي دخلت بيروت منذ شهرين.

مخيم تل الزعتر الواقع في شمال شرقي بيروت، على تلة مرتفعة نسبيًا، معروف باسم «تلة المير»، يقطنه آلاف الفلسطينيين الذين يعملون في المعامل المحيطة الكثيرة. يسكن إلى جوارهم لبنانيون فقراء، من العمال أيضًا، وانضم هؤلاء إلى المخيم خلال شهور القصف الطويلة التي بدأت في كانون الثاني/يناير 1976، والتي سبقت حصار المخيم الذي دام اثنين وخمسين يومًا. لا نعرف كثيرًا عن مجريات هذا الحصار. الأخبار الخارجة عنه نخالها مبالغات، أقرب إلى الخرافات؛ من قبيل الفتوى التي طلب أهل المخيم تصديقها من المراجع الدينية، وهي الفتوى التي تجيز أكل لحم البشر؛ أو تلك التي نتناقلها كثيرًا عن اضطرار أهل المخيم إلى أكْل الجرذان والفئران، والشرب من المياه الآسنة... لكننا مشغولون بأنفسنا أيضًا. فالقصف لم يتوقف، منذ دخول القوات السورية إلى بيروت. و«الهدوء الحذر» هو عبارة عن إشارة إلى أنّ احتمال الموت مرجَّح فحسب، وليس مؤكدًا. ننسى مخيم تل الزعتر، وننسى «علقة» الرفيق «تلاتْعَش»، ولا يخطر ببالنا إلّا عندما يعود فيبرز خبرًا فظيعًا عن المخيم. أمّا نحن، فنقارن بين ترحالنا من ملجأ إلى آخر، محمّلين بـ «أغراضنا» الضرورية، ومزوّدين بما يلزمنا من أغطية وطعام وشموع، وبين الحصار الذي يزداد إحكامًا على تل الزعتر، والذي نتخيّله - في لمْحة بصر - يعود ويختفي تحت هول قذيفة، أو انفجار، فننسى الرفيق «تلاتْعَش» ثانيةً.

في عصر يوم من أواسط آب/أغسطس، وأنا واقفة بسيارتي على مفرق كورنيش المزرعة - الكولا، إذا بي أرى شاحنةً محملةً بأناس. لا أحتاج أن أسألهم من أين أتوا. فسَيل الشاحنات الذي يليهم يُفصح عن نفسه، ربما أربع شاحنات أو أكثر. أوقف سيارتي، ألقي نظرةً على الشاحنات، لعلّني ألمح الرفيق «تلاتْعَش» بينهم. لكن عبثًا أحاول ذلك. فالشاحنات كلّها ليس فيها إلّا الأولاد والنساء وكبار السّن. أهتز من صدمة تضربني بعد أن تحوّلت نظرتي السريعة إلى تحديق في الوجوه. أول من يصفعني امرأة تبكي في ذهولٍ، من دون توقف، تتشنج وتشهق، وهي منفوشة الشعر، نحيلة، مريضة، أو ربما مرهقة، ذات ثيابٍ رثّة دالّة على شدّة فقرها. لكنها ليست وحدها. بعد التحديق بها لحظتين أو ثلاث لحظات، ألاحظ أنّ كلَّ من حُشر في هذه الشاحنة كان في وجهه قدرٌ من ذهول تلك المرأة، وضياعها. وأحيانًا كان الأمر أكثر من ذلك، خصوصًا الأطفال الذين يبكون، وبعضهم - كما هو واضح من صراخه - قد أضاع أهله. أسأل سائق الشاحنة الثانية عن وجهته، فيجيب «مخيم شاتيلا». أسأله عن الرجال، أين هم؟ لكنّ السائق لا يعرف، ربما هم آتون من بعدنا في شاحنات مخصصة لهم. لماذا.. يخصصون للرجال..؟ لا أسأله، لا أجده أمامي، لا يسمع باقي أسئلتي. أنتظر مرور القافلة كلّها، وأتبعهم إلى المخيم؛ راجيةً أن يكون الرفيق «تلاتْعَش» حيًّا يُرزق. لا أريد تصديق الأخبار التي تناقلها الرفاق، والتي تقول إنّ القوات اليمينية اختارت، بعد فكّ الحصار عن المخيم، أن «تصطاد» بعض رجال المقاومة. أخشى أن يكون صاحب «النحس» منحوسًا إلى هذه الدرجة.

أصِل إلى مدخل مخيم شاتيلا، أجد هناك وجوهًا أعرفها من

الرفاق والحلفاء؛ هم مثلي أتوا للهدف نفسه. يمرّ النهار كلّه، ونحن ننتظر. وفي أوائل الليل، يحضر «باص» صغير، يغصّ بالرجال، فيشير أحدهم إلى قريبه، ويناديه. الرفيق «تلاتْعَش» من بينهم. ينزل من الباص وهو يعرج، وقد خسر من وزنه نحو عشرة كيلوغرامات. كان متعبًا يغالب النعاس، ويحمل كيسًا من البلاستيك يشتمل على محتويات مبهمة. نرحّب به، ونحمد الله على سلامته، وهو يجيب بابتسامته، وقد رسمت تجربة الحصار على وجهه مسْحة حزن أصيل. لا يريد أن يتكلم الآن. يريد سريرًا.. يريد أن ينام فحسب. يقول ذلك وهو يكاد يقع على الأرض. الرفيق «تلاتْعَش» هو الآن بيننا، في البيت. ينام ثلاثة أيام، يستفيق خلالها أربع مرات أو خمس مرات، ليشرب ماءً ويتناول خبزًا وجبنًا. لا يسمع القذائف المنهمرة فوق رؤوسنا، ولا يشعر بشيء غير تلك الرغبة في النوم. أمّا حكايات الحصار وأخبار خالته وعائلتها، فهي عندما يصحو في اليوم الرابع، وقد عادت إليه القدرة على الكلام.

رواية الرفيق «تلاتْعَش»
لحصار مخيم تل الزعتر (1976)

بعد أن يستعيد الرفيق «تلاتْعَش» قدرته على الكلام، يروي لنا قصته:

«خالتي سعاد تعيش في هذا المخيم. زوجها فلسطيني من حيفا، اسمه «أبو ياسر»، تعرّفتْ إليه منذ ثماني سنوات تقريبًا في صور، في عزّ العمل الفدائي. كانت ممرضةً في أحد مستشفيات المدينة، وتطوعت لمساعدة الجرحى الفلسطينيين الذين أصيبوا في المعارك مع إسرائيل على الحدود الجنوبية. هناك تعرّفت إلى أبي ياسر، وكان أُصيب بشظايا انفجار عطّلت قدرته على المشي، وصار يحتاج إلى عكازات. فكان حُبّ وزواج، ثمّ انتقالٌ إلى مخيم تل الزعتر. وقيل لأبي ياسر إنّه سوف يجد هناك عملًا في أحد معامل «الشوكولا»، بعد أن توقفت الجبهة الشعبية الديمقراطية عن دفع راتبه كعسكريٍّ متفرغ. عندما تعرض المخيم للقصف والقنص، ساءت أحوال خالتي وأولادها الثلاثة: صار من الصعب عليها أن تهرب إلى الملجأ عند اشتداد القصف، وأطفالها ما زالوا قاصرين أو رُضَّعًا، وهي «تداوم» في المستشفى الميداني الوحيد المجهز في المخيم، والعائلة كلّها ضائعة تحتاج إلى من يساعدها على يومياتها الصعبة أو، كما تريد أمي وأخوالي معها، أن «أسحبها» كلّها إلى خارج المخيم، وأحضرها إلى صُور.

عندما وصلتُ إلى المخيم، كان القصف نحوه عاديًّا، وكذلك القنص بعد أن تعلّم أهالي المخيم كيف يتفادونه. أمّا خالتي سعاد وعائلتها، فكانت مثل حالة باقي الأهالي الذين يروحون ويجيئون مئة مرة في اليوم الواحد، بحثًا عن بعضهم، أو عن أمانٍ موقت، أو عن إنارة ليلية، أو أي شيء آخر في هذا المخيم الذي يُقصف منذ ستة شهور. لكنّ الفرق - مقارنةً بالعائلات الأخرى - أنّ زوج خالتي أصابه التعب الشديد، لكثرة ما تنقّل، وهو مسرع بين هذا المكان أو ذاك، ولم يعُد بوسعه المشي، حتى مع وجود العكازات. يقعد إلى جانب الصغار؛ شيماء وياسر وزهرة آخر العنقود، وتخرج خالتي في الصباح الباكر للتبضّع، ثمّ تعود وتحضّر الغداء، وتعبئ غالون المياه من البئر الواقعة إلى جانب بيتها والحمد لله، وهو «بيت» - كما يسمّونه - أشبه ما يكون بأربعة حيطان يعلوها سقف من «الإترنيت»، وفي داخله غرفتان وحمّام. وبعد ذلك، تخرج خالتي ثانيةً من البيت، تصطحب معها كلًّا من شيماء وياسر، وتترك زهرة الرضيعة، مع والدها، وتختفي تحت الأرض لـ «تداوم» ساعات لا تنتهي في المستشفى الميداني.

هذا المنوال من الحياة أرهق خالتي سعاد وعائلتها، وأضعف أملها المتعلّق بإمكانية إنهاء هذا القصف اليومي الوحشي، أو باتفاق بين الأطراف على هدنة على الأقلّ. كلّما تحدّثوا عن وقف إطلاق النار، كان القصف يشتدّ، والقنص أيضًا. فِرق اليمين اللبناني دعمَها الجيش السوري في مطلع الصيف، وصارت خالتي تشعر بأنْ لا مناص من الخروج من المخيم بأيّ ثمن، لكنها تتردّد. اتصلت بوالدتي، التي ألحّت عليها في الخروج، فأرسلتني إلى المخيّم، لـ «أسحب» خالتي وعائلتها منه. جئتُ بسيارتي إلى المخيم، ودخلتُ

إليه من الجهة الغربية غير «المزفّتة». وعندما وصلت إلى بيت خالتي، وجدت أنّ حالهم أكثر صعوبةً مما صورته خالتي لأمي: ينامون في البيت غير المحْمي، ولا يخرجون منه إلا إذا فاق القصف توقعاتها؛ فساعتها تهرب إلى الملجأ، تاركةً زوجها الذي يردّد حينئذٍ، كلّ مرة، أنّ الموت قدرٌ، وأنّ المهمّ هو إنقاذ الأولاد.

كان الأولاد يمضون نهارهم بين الركض في أزقة المخيم والاختباء في البيت أو الملجأ. لا مدارس عندهم، ولا ألعاب، ولا حتى عناية بطعامهم ونظافتهم وعواطفهم. وخالتي تكاد تقع على الأرض من الإنهاك. أصابها النُحول والشيب الباكر، ثُبِّتَت تعابير الذعر في وجهها، وصارت تمشي مشية الهاربين. لا تقف، لا تستطيع أن تقف. تشعر بالخطر إذا وقفت. أمّا أنا، فعندما رأيت كلّ هذا، وغيره من البلاء اليومي، قلت لخالتي وزوجها إنّ علينا ألّا ننتظر لحظةً واحدةً، وهممت بمساعدتهم في توضيب «أغراضهم» الضرورية، على أن نغادر المخيم في اليوم التالي.

لكن، صادف أن كان اليوم التالي هو أول يوم لحصار المخيم من منافذه كلّها. وبعد ما احتلت القوات اليمينية «تلّة المير» المشرفة على المخيم، وتمّ إغلاق هذه المنافذ، صرنا عمليًا محاصَرين. هذا ما فهمناه عبر الإذاعة. علقتُ، إذًا، في المخيم، مع خالتي سعاد وعائلتها، وعشت اثنين وخمسين يومًا من الجحيم الخالص، قد أعجز عن نقله إليكم بجميع حذافيره وتفصيلاته الصغيرة الحيّة.

في البداية، تخلصتُ من شعوري بالانزعاج، مجرد الانزعاج، من تغيير برامجي؛ إذ كان الرفاق ينتظرونني في صور، وكان على عاتقي مهمات تنظيمية محددة. وساعدتني على ذلك فكرةٌ مفادها

أنّ مواجهة حصار يمين لبناني بمنزلة مواجهة حصار إسرائيلي، وكلا الأمرين يستحقّ وقتي وصبري... وبعد أن هدأتُ، واستوعبت أنّ الحصار قد يدوم، أخذت على عاتقي مساعدة خالتي في ترتيب شؤون عائلتها، من تموين وحماية.

كان في المخيم ملجأ «بدائي»، يقع على الجانب الآخر من بيت خالتي. حملتُ زوجها أبا ياسر إلى الملجأ على كتفي. لم يكن ذلك صعبًا، بعد أن خسر كثيرًا من وزنه السابق. أجلسته في ركن من أركان الملجأ، ورتّبت له جلسته بما تيسّر من أشياء صغيرة. ثمّ عدتُ إلى خالتي تحت قصف شديد. انتظرت هناك حتى يهدأ القصف في بداية الليل، وحملنا أشياء الحياة اليومية إلى الملجأ. كانت خالتي تحمل زهرة، وكنت أمسك بيدَيّ شيماء وياسر، وكنّا نركض... اتجهنا إلى المكان الذي كان أبو ياسر ينتظرنا فيه. وهكذا اطمأننت قليلًا، ونمت في تلك الليلة مثل القتيل، لم أدرك أنني نائم على كرتونة إلا في اليوم الثاني. استكثرتُ على نفسي «حظي» السعيد أنّ هذا الحصار فُرض في فصل الصيف، ولم يُفرض في الشتاء. ولو لم يكن كذلك، لكنت أُصبت حتمًا بالإنفلونزا في هذا الملجأ الرطب. لكنّ حظي اتضح تمامًا في اليوم التالي، عندما أخذ الحرّ يخنقنا، وكنّا نحتاج إلى الماء لنرتوي. أول مهمة كنت أقوم بها هي جلب الماء من البئر. أخذت خالتي منذ اليوم الأول «تداوم» في المستشفى الميداني، ومعها رضيعتها زهرة، من دون مفارقة المستشفى، في حين كنت أتولى أمْر أبي ياسر والولدين.

كان عليّ، إذًا، أن أجلب الماء؛ وهو - بحسب ما علمت - أمرٌ سهلٌ. يقول لي أهل المخيم الساكنون معنا في الملجأ إنّه «سهل». أمّا الآن، فكل مشوار إلى البئر، هو مغامرة قاتلة. لكنّني أستطيع تفادي

القناصين. أزحف على بطني حتى لا يراني قناص؛ لأصل إلى البئر. وبعد ذلك، أرفع رأسي بالتدريج فوق حافتها، أرمي السطل المربوط بحبل. أنزله ببطء، حتى أشعر بثقل الماء، أرفع جمسي لحظةً واحدةً، أكون مستعدًا فيها لأنْ أغرف الماء، وآخذ في سحب الحبل، ثمّ تأتي أصعب مهمة؛ أي العودة بالسطل المملوء ماءً إلى الملجأ، من دون تعريض نفسي لرصاص القناص، ومن دون خسارة قطرة ماءٍ واحدة. في الليلة الواحدة، كنت أقوم عشر مرات بهذه الرحلة، أعبّئ الغالونات في الملجأ، ثمّ أجلس مع باقي سكانه نستمع إلى «راديو الترانزستور»، ونناقش الوضع... «كان هذا في الأسبوع الأول».

رواية الرفيق «تلاتْعَش» لحصار مخيم تل الزعتر (1976) (تتمة)

«في الأسبوع الثاني، بدأنا نرسل نداءات استغاثة إلى الرفاق في القيادة الفلسطينية عبر جهاز الإرسال. كنّا نصرخ: إنّنا محاصرون من الجهات كلّها، وإنّ عليهم أن يحررونا، أن يأتوا من خلفهم، بالقذائف بالصواريخ «الغراد»، بالزحف البشري..! لا يهمّ! المهم أنّ ينقذونا، بعد ما انتقلنا إلى الملجأ، وصار نهارنا لا يختلف عن لَيلِنا. نصرخ: إنّ المياه نادرة، والخبز سينقطع بعد أسبوع، وربما قبل ذلك. لكنهم لا يفعلون شيئًا: يجيبون بأنهم قادمون، ننتظر يومًا، يومين، أربعة أيّام، خمسة أيّام... ولا تأتي النجدة. فنكرر، ونصرخ، نطلب التكلم مع «مسؤول» ربما تكون إجابته أكثر دقةً، لكن ما يقوله لنا لا يفاجئنا تمامًا، نعرف منه القليل... وعلى الرغم من ذلك، يصيبنا الذهول: نعرف منذ الحرب على الكرنتينا، منذ بضعة شهور، وكذلك على حيّ الغوارنة، والنبعة، أنّ كلّ معركة يخوضها اليمين اللبناني انتهت بـ «نجاحٍ» قلّ نظيره؛ المعارك كلّها أدّت إلى إفراغ هذه المناطق من أهلها وسكانها، بقوة القصف والحصار والحرق والقتل. هؤلاء كلّهم باتوا «مهجّرين» من بيوتهم، اقتُلعوا منها بقوة السلاح وتشردوا في أنحاء لبنان، كلٌّ عاد إلى قريته الأصلية. أمّا

الفلسطينيون منهم، فذهبوا إلى مخيمات العاصمة، ليضيفوا إلى حَشْرتها حَشْرةً جديدةً. يفاجئنا المسؤول بصراحته؛ إذ يبرر تقصير القوات الوطنية بأنها مُشغلة بصدّ هجمات قوات الجيش السوري عن جبهاتنا الشمالية والجنوبية. يضيف المسؤول «ليس هذا فحسب»، «بل إنّ القوات السورية تدعم قوات الكتائب من الخلف، تحمي ظهرها». هذا التحوّل السوري ليس مفاجئًا تمامًا بالنسبة إليّ. كانت تصريحات قادة قواتنا المشتركة المستنكرة لدخول الجيش السوري وقصفه لمواقعنا تدلّ على كثير من ذلك التحوّل. أما الآن، في حصار المخيم، فأجده واقعًا «ملموسًا»، لا مجرد تصريحات واستنكارات «ملغزة» أحيانًا.

هكذا، أقرّر للمرة الألف أنني «منحوس». لكن هذه المرة، لا أملك تَرف الضحك من حظي المتعثر؛ عليّ أن أشترك مع أهل الملجأ في تنظيم حياتنا، تنظيم بقائنا كلّنا أحياءً. وأوّل ما عليّ الانتباه إليه هو طريقة إدارة شؤون الأكل والشرب، من خلال الاعتماد على أنفسنا فحسب. أولى «المواد» الثمينة التي نحتاج إليها هي الماء طبعًا. البئر التي كنّا نغامر بالركض إليها من أجل سطل من الماء، أصبحنا ممنوعين منها؛ إذ تغيّر نوع السلاح المُصوّب نحوها. فبدلًا من رصاص القناص، صارت الآن عرضةً لقذائف صاروخية، بعضها أصاب فُتْحتها، فوقعت القذيفة في أعماقها، وربّما تكون البئر قد انفجرت من الداخل. لا أعلم... المهم أنّها لم تعُد بئرًا، بل هي ثُقب محفور تحت الأرض، تتناثر في جوانبه حجارة محطّمة وشظايا وحديد.

كان من بين سكان الملجأ امرأة عجوز، لا عمر لها ولا زمن، تتطوّع للذهاب إلى ما تصفه بـ «النبع»، في مكان مجهول من

المخيم، تحمل معها بعض القناني في كيسٍ من النايلون المُقوى. تختفي ساعة أو ساعتين، ثمّ تعود محمّلةً بمياه تعطيها للأطفال الذين يكونون أشدّ حاجةً إليها. مَن تكون هذه العجوز الشجاعة؟ أسألها عن اسمها وقريتها الفلسطينية الأصلية، فتجيب بأنّها والدة الشهيد «أبي شعب» الذي قضى في معركة الكرامة في الأردن، وأنّ أحفادها هم أولئك الصبية الذين يجلسون بالقرب من والدتهم «أمّ شعب» التي كنت أعرفها طبعًا؛ لأنّ أبا شعب كان صديقًا لزوج خالتي سعاد، وقصة ذهابه إلى الأردن واستشهاده معروفة بيننا. أقول لوالدة أبي شعب إنّها، بمغامراتها في جلب الماء، شجاعة فعلًا. أسألها عن موقع هذا «النبع» لعلّني أساعدها. فتجيب بأنّ المساعدة ليست ضروريةً، وبأنّ من كانوا في عمر الشباب مثلي عليهم حماية غيرهم، من دون المخاطرة المكشوفة بحياتهم، لأنهم هم المستقبل. وتتابع كلامها قائلةً: «أمّا أنا، فأيامي معدودة، وإن عرّضتُ نفسي للخطر، فليس في الأمر خسارة كبيرة». تقولها بعزم الشباب المصمّم، وبقوة أيضًا؛ كأنّ مغامرتها اليومية إلى «النبع» السري، أو توسّلها الموت، منحها حياةً جديدةً، فأضحت صبيةً شقيةً بضفائر سميكة، تقفز بيننا موزِّعةً القناني، والأبصار الشاخصة إليها تبرق إعجابًا ورجاءً؛ وكأنّ هذه الـ «مأثرةَ» لـ «أمّ أبي شعب» تعتمد على أجمل قوانين الحياة والموت.

في الأسبوع الثالث أو الرابع، لا أذكر تمامًا، بدأ الخبز يختفي بالتدريج... نقطع الخبز «الحاف» مئة «شقفة»، ويكون لكل «عائلة» راكنة مع أفرادها رغيفان، على أنّ الأطفال هم أصحاب الـ «شقفة» الأكبر، يليهم آباء قليلون. فالباقون إمّا استشهدوا، وإمّا أنّهم «يديرون» معركة الحصار مجتمعين مع بعضهم في زوايا مظلمة من الملجأ، أو

ربما في مداخله... ثمّ الأمهات. آه الأمهات، أعظم مخلوقات الله: لا حصة لهنّ من فتات هذا الخبز. تلفّ الأمّ القطعة التي تكون من قسمتها، تخبِّئها داخل أحد الأكياس؛ فربما كان الخبز إلى زوال، وربّما يحتاج أولادها إلى أكثر من تلك القطعة في اللحظات الحرجة. وعندما يفرض الجوع نفسه، يصبح سببًا للبكاء الجارح. آه، بكاء الأطفال الجائعين... بدأ مسلسله بعدما اختفى الخبز، توارى، كان في شُحِّه وعلله مثل شخصية محبّبة في مسرحنا المعتم. يظهر، فنطير فرحًا، ويسيل لُعابنا. لم يبقَ من الخبز أيّ شيء، حتى الفتات المخفيّ. انقضت تلك المعجزات التي تُسكت الأطفال... وبقيَ العدس. لا تسألني كيف وجدوا بضعة أكياس منه، أو كيف كان يُطهى، وعلى أيّ نار، وكيف يقدَّم ساخنًا. وُزّعت أدوار الطهي، وفي أحد الأيام كان دور خالتي سعاد. لا يمكن أن تتخيل لحظات الانتصار على وجهها عندما «عادت» من «مطبخها» محمَّلةً بـ «طنجرة» ساخنة تفوح منها رائحة العدس المسلوق. تضع الطنجرة على الأرض في وسط الملجأ. تحمل ملعقةً كبيرة وتصبّ بمقدارها عدسًا في صحون، أو أكواب ماء، أو أيّ وعاء متوافر... هذا كلّه والقصف متواصل بطاقته القصوى، والشهداء مثل العصافير، يسقطون ويبقى الجرحى، وابتكر «طبيب» المخيم من أجلهم طرائق جديدةً لمعالجتهم؛ مثل تلك القناني التي غُسلت جيدًا، وقُلبت، وسُدّت فتحاتها، وحُوّلت إلى أمصال، إضافةً إلى «اختراع» ذلك الشاي العجيب، وهو مصنوع من تمرٍ مَغليٍّ يعشقه الأطفال. التمر كان نهاية عذابنا. وفي الأسبوع السابع، هدأت فجأةً أصوات الانفجارات والقصف، وأعلن أحدهم أنّه في وسعنا الخروج من المخيم، والانتقال إلى «مكان آخر». «إلى أين؟» كانت العيون تتساءل في صمت وتعبٍ. لا أحد يمكنه الإجابة، وكلّنا حذرٌ تجاه أملنا المتعلّق بالخروج من هذا المكان القاتل.

في الفسحة التي هي مدخل المخيم، كانت القوات اليمينية تنظرنا، وتفصلنا: «الرجال هنا والنساء والأطفال هناك». رأيت خالتي سعاد وأولادها يصعدون إلى شاحنة، ومعها عشرات مثلها من نساء المخيم وأطفاله. وما إن انطلقت الشاحنة، حتى جاء فرز من نوع آخر: تدقيق آخر في هوية الرجال. «أنت أبو كذا..؟ تعالَ معنا، لدينا بعض الأسئلة نريد طرحها عليك». وهكذا جرّوا إلى مبنى مهجور عددًا من الشباب، وكل مرة نسمع إطلاق الرصاص، والقوات لا تخفي أنّها تنتقم - وربما كان انتقامها عشوائيًا أو منهجيًا - من الرجال الذين تصدّوا لها طوال الشهور الفائتة، وطوال الحصار. ما أنقذني هو أنّني غريب عن المخيم، أضع نظارات طبيةً لا تعطي مجالًا للشك... أمّا زوج خالتي، ف «فحصه» أحد العناصر، ليتأكد إنْ كانت عكازاته حقيقيّةً، فأعفاه من الموت، وتركه يصعد إلى شاحنة الرجال. لا أعرف تحديدًا عدد الشباب الذين أُخذوا للموت في هذا المبنى المهجور، ولا عدد الذين قضوا في المخيم خلال تلك الشهور الستة من القصف، والحصار. ربما ألف، ربما أكثر... لا أدري.

أمّا الآن، بعد أن أرسلتُ خالتي وأولادها وزوجها إلى صُور عند أمي قررتُ السفر، الهجرة، الهرب، سَمِّها ما شئت. أنا لم أعُد مؤمنًا بتلك المعارك كلّها؛ لا بالجيش السوري الذي كان حليفنا في البداية، ولا بالحركة الوطنية التي لم تتمكن من الدفاع عن نفسها، ولا عن مخيم تل الزعتر، ولا الكرنتينا ولا النبعة...».

- إلى أين يا رفيق تلاتْعَش؟

- «ربما إلى كولومبيا، أو البرازيل، المهم أنّني سوف أحضر جواز سفري في أقرب فرصة وأرحل...».

اغتيال كمال جنبلاط (1977)

تُشعرنا العملية الجزئية لجمع سلاح ثقيلٍ من قواتنا المشتركة، وقوات اليمين في فندق ملكارت، في بداية السنة، إضافةً إلى ابتعاد المناوشات العسكرية الضعيفة عن العاصمة، بنوع من «الهدنة». في هذا اليوم الربيعي البارد، آخذ ابني إلى المركز الثقافي العربي، في شارع الحمراء حيث يُعِدّ مع رفاقه وأبناء عمومته مسرحيةً سوف تُعرض في قصر اليونسكو. هدوء حذرٌ، نريد أن نحسبه طويلًا، بعد صدمة دخول القوات السورية الأراضي اللبنانية، وحصار مخيم تل الزعتر، ومَحوه من الخريطة. في إثر نهاية التدريب ونحن في الشارع، أشعر بأنّ أمرًا جللًا قد حصل. الناس مسرعون، هاربون إلى مقاصدهم، والوجوه «مقفلة» على نفسها، والسيارات قليلة، والعتْمة ما زالت مبكرةً في هذا الشهر الربيعي القارس. أبحث بين المارة عن وجه أكثر انفتاحًا من الوجوه الأخرى، وأسأله عمّا في الجو من كهرباء... «هل حصل شيء ما؟».

- «مصيبة يا مدام! كارثة! تجرّأوا وقتلوا كمال جنبلاط!».

الخبر ليس مفاجئًا تمامًا. والأصابع كلّها متجهة نحو القوات السورية التي باتت مسيطرةً على الأمن في مناطقنا. قبل سنة تقريبًا حاولوا اغتياله بسيارة مفخّخة أودت بأربعة قتلى، واغتيلت شقيقته

ليندا، أيضًا، «على يد مجهولين». كان الشك حائمًا حول اليمين اللبناني. لم يتوقف لسان جنبلاط، منذ دخول القوات السورية إلى الأراضي اللبنانية، عن الإدانة والشجب، خصوصًا بعد سقوط مخيم تل الزعتر بيد قوات اليمين بمؤازرة القوات السورية. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ وقْع الاغتيال كبير. من الحمراء، إذًا، إلى طريق الجديدة حيث مركز منظمتنا الرئيس، في شارع عفيف الطيبي. ابني معي، لا أريد العودة به إلى البيت قبل أن تتّضح ذيول الاغتيال، وما يترتّب عليه.

الاغتيال السياسي يحرّك عندي وسواسًا جديدًا، لم أصادفه مع القذائف العشوائية ورصاص القنص والقصف الجوي، بل حتى السيارة المفخخة. صحيح أنّنا شهدنا فصلًا منه، في شباط/فبراير 1975؛ عندما اغتيل الزعيم الصيداوي معروف سعد، أثناء تظاهرة ضدّ شركة «بروتين» التي أخضعت صيّادي الساحل الصيداوي لقوانينها المجحفة. لكنّ هذا الاغتيال يبدو لي بعيدًا... لقد شهدنا خلال عامين أهوالًا تتجاوز المطالب المعيشية، وإنْ كانت مرتبطةً بها. ثمّ إنّ صيدا ليست العاصمة، كما أنّ معروف سعد ليس هو كمال جنبلاط؛ ليس لهما الوزن نفسه.

أحتاج إلى تحريك مخيلتي قليلًا، حتى أعِيَ تمامًا معنى هذا الوسواس. وعلى الرغم من أنّني علمانية، وفي حزب لا يعتدّ بموازين الطوائف، فإنّني أقول في نفسي إنّ هذا النوع من الاغتيال يعني إلغاء كلّ من كان قويًّا في لبنان، كلّ من تجرأ وصاغ مواقف منسوجةً في حياكته «الوطنية»، وليس على مقاس هذه القوة أو تلك. جنبلاط بالنسبة إلينا هو الواجهة الوطنية التي تحمينا - نحن الأحزاب اليسارية - من حسابات البيادر الطائفية. هو رجل مركّب

من تناقضات شتّى أشدّ تركيبًا؛ روحانية، علمانية، درزية، بكاوية، إقطاعية، اشتراكية، وزعامة على رأس أكبر تجمع تقدمي عرفته بلادنا. ننظر إليه بعين مزدوجة، لكننا نشعر، بوجوده كأنه يظلّلنا، يحتضننا. وخسارته تدخل في الخانة العقلانية، أكثر من دخولها في الخانة العاطفية.

«كيف قُتِل؟»، أسأل الرفاق في المركز. فيسردون قليلًا ممّا يعرفونه: كان متوجهًا من بيروت، حيث مكتبه، إلى بعقلين في الشوف، وعند منعطف «دير دوريت»، أطلق عليه أربعة مسلحين الرصاص، سيلًا من الرصاص لا يحصى... وعلى اثنين من مرافقيه. اكتشفه رئيس بلدية «غريفة»، وذاع الخبر سريعًا في قرى الشوف. خاف الناس من ردّات فعلٍ طائفية، من اتهام المسيحيين الشوفيين بالجريمة، فسادَ الجمود في الليلة نفسها. وفي اليوم التالي، نسمع أخبارًا عن قتل مسيحيين شوفيّين انتقامًا بسبب هذه الجريمة... الأعداد ليست واضحةً، كما أنّ الأسماء لم تُذكر. إشاعات فحسب يؤكدها الرفيق أندريه الذي هرب من الشوف إلى الأشرفية، بعد أن شعر بالخطر. «قتلوا كثيرًا من المسيحيين! كانوا منفجرين غضبًا! كانوا لا يميزون بين عدوّ وصديق، بين شيوعي وكتائبي!». لكنّ مصلحة حركتنا الوطنية تفرض علينا الصمت عن هذا القتل الانتقامي. المهمة الآن - بوصفنا حزبيين - هي تحصين صفوفنا ومنع القوات السورية التي نتهمها في دوائرنا بأنّها عميلة، من النيل من تلاحمنا مع القيادة الفلسطينية، وهي أيضًا الاستمرار في مشروعنا التحرري.

بعد الصدمة الأولى، تأخذ الحياة الحزبية شيئًا من مجراها. وسؤالنا كلّنا، هو: «ماذا بعد اغتيال كمال جنبلاط؟ هل تنقلب الموازين تمامًا؟! هل هُزمنا في صميمنا؟! هل هناك أملٌ ما؟». ماذا

عن غياب جنبلاط؟ من الذي سيرث زعامة الحركة الوطنية؟ أهو جورج حاوي الأمين العامّ للحزب الشيوعي، أم محسن إبراهيم الأمين العامّ لمنظمة العمل الشيوعي، وكلاهما معروف بقربه الشديد من الشهيد الراحل؟ كلّا! يجيب مسؤولونا: «زعيم الحركة القادم هو ابنه وليد جنبلاط». في هذا الاجتماع الذي كان مخصصًا للبحث في مصير قيادة الحركة الوطنية، ينتفض بعضنا، وكان الأشدّ عداءً، لما يسميه «التوريث الظالم»، هو الرفيق إسحق. يرافع عن وجهة نظره، معتمدًا كثيرًا من المراجع، بهدوء تامٍّ، وبصلابة أيضًا. الرفيق المسؤول، صلاح، مندوب اللجنة المركزية، يهدِّئ من روعه، يتكلم على «البراغماتية السياسية». ربما كنت، أوّل مرة أسمع فيها هذه العبارة. يقول إنّ «موازين القوى»، و«الهجمة السورية»، و«انقسام الحركة الوطنية بعد دخول القوات السورية»، و«استمرار القتال على الجبهات البعيدة»... وأشياء أخرى، كلّها تفرض علينا حسابًا آخر، غير حساب الثورة، وإنّه علينا، أولًا، وضع «الرجل المناسب في المكان المناسب»، وابن الشهيد هو الأنسب الآن، وإنْ كان التوريث غير مستحبّ في حركتنا... إلى ما شابه ذلك من كلام لا يُقنع الرفيق إسحق الذي يقرّر في إثر هذا الاجتماع الاستقالة من المنظمة، وهو يردّد:

- ألا يكفي تل الزعتر؟ والكرنتينا؟ والنبعة؟ هُزمنا هناك! وها نحن نُهزم أمام الإقطاع والتوريث أيضًا... أين أنت يا ثورة؟ أين المبادئ التي نشأنا عليها؟ التهمتها النيران..؟!».

بعد خروج الرفيق إسحق، في اجتماعنا التالي، يروي لنا الرفيق صلاح شيئًا ممّا يدور في بال قيادتنا. يقول إنّ الوريث وليد جنبلاط ليس مهيَّأً تمامًا للزعامة الوطنية. إنّه شاب وسيم، يرتاد الأندية الليلية

ويهوى الدراجات النارية، ويحتاج - ليكون جديرًا بالزعامة - إلى أن يقوم بتوعيته كلّ من محسن إبراهيم وجورج حاوي. جلسات مكثفة من التحليلات والمعلومات سوف يخضع لها «الوريث»، ولن تمرّ شهور حتى يكون جاهزًا. هكذا، ننسى مسألة التوريث التي خسرنا بتأييدنا لها عددًا آخر من الرفاق.

قبل ذلك، يأتي يوم تأبين الشهيد، ليُكرّس ما نَأنفُه في دواخلنا، ربيب نظرياتنا السابقة عن الثورة المستمرة. هو يوم عربي وأممي، يشترك فيه الكثير من الأحزاب الاشتراكية المنتمية إلى الأممية الاشتراكية؛ وفودٌ إيطالية وفرنسية وبلجيكية، وأخرى عربية، تحضر إلى بيروت للمشاركة. فندق «البوريفاج» يستقبل حفل التأبين، وياسر عرفات يفتتحه، مشددًا على «وحدة الشعب» و«وحدة المصير»، وسط جوّ في غايةٍ من الحماسة. وعندما يُنهي خطابه يتجه صوب وليد جنبلاط، يمسك بيديه الاثنتين، يقبّله، كأنه بذلك يضع فوق كتفه سيف الولاء «أنت زعيمنا الآن!». أمّا الوفود الأجنبية، وقد كلفتني المنظمة بمرافقة الإيطالية منها، فالأرجح أنّها لا تفهم تمامًا معاني «التطويب». يسألني أنطونيو، أحد أعضاء الوفد، خلال مأدبة يقيمها وليد جنبلاط في «المختارة»، تكريمًا للوفود الأجنبية: «وليد جنبلاط زعيم حزب؟ أم طائفة؟ أم عائلة؟ أم طبقة؟ أم ائتلاف وطني يساري مؤيد للفلسطينيين...؟». أجيبه: «كلّ هذا معًا». فيرفع يديه إلى السماء متمتمًا كلمات بالإيطالية لا أفهمها، لكنّ وجهه يقول مدى حيرته أمام هذا اللغز الشرقي الجديد.

أترك منظمة العمل الشيوعي (1981)

لم أعُد سعيدةً داخل المنظمة، كما كنت في السنوات الأولى من انتسابي إليها. ولا الرفاق سعداء بي. أمرّ بالهيئات كلّها، بالقطاعات كلّها. من العمل «الشعبي» في بداية الحرب، داخل مركز الشياح، إلى القطاع الطلابي، ثمّ الشعبي ثانيةً، إلى النسائي، والقطاع الإعلامي في الفترة الأخيرة، عبر مجلة **الحرية**... كلّ مرة أُنقل إلى قطاع، كلّ مرة تتدهور علاقتي بالرفاق. في العمل الشعبي أثناء مرحلته الثانية، أُؤيد تمردًا يقوده الرفيق صالح، وهو مندوب خليته في «الغبيري»، في ساحل المتن الجنوبي. الرفاق في هيئة القطاع المشرفة على خلايا المنطقة يطلبون منّي أن أحقق مع الرفيق صالح في شأن مخالفات حزبية قام بها، وأن أقدّم تقريري إلى الهيئة. أجتمع بالرفيق صالح، ثمّ ببعض الرفاق الذين معه في الخلية؛ أدقّق معه في بعض التفصيلات، لأخلص إلى نتيجة مفادها أنّه محقٌّ في تمرّده على الرفاق الأعلى رتبةً منه.

بالنسبة إليّ - كوني حزبيةً «صادقة» - لا أريد أن أساير الهيئة، ولا أن أقول عكس ما فهمته من تمرّد الرفيق صالح. تقريري إلى رفاق الهيئة لا ينال إعجابهم، والنقاش الذي يليه يشعرني بالهوة الشاسعة بيني وبينهم. يريدون أن أغيّر التقرير، وأن أقول إنّ الرفيق صلاح ليس جديرًا بأن يكون مندوبًا عن خليته، وأنا على عكس

ذلك أدافع عنه. بضع كلمات مزعجة من هنا، وشيء من الجفاء هناك، يخلقان عندي رغبةً في ترك هذا القطاع. قبل ذلك، كنت قد تركت القطاع الطلابي. وها أنا الآن على أبواب قطاع جديد أسّسه المكتب السياسي، وأولاه اهتمامًا خاصًّا عبر انتداب أحد أعضائه ليكون مسؤولًا عنه، و«مشرفًا» عليه: تأسيس هيئة نسائية، واجهة جماهيرية، تابعة لمنظمتنا، تتفرّغ لقضايا تحرير المرأة. هنا لا يعجبني الوضع أيضًا. فاللجنةُ المسؤولة عن صياغة برنامج هذه الهيئة، وقانونها الداخلي، ثمّ التحضير لمؤتمر تأسيسي يكون هدفه إطلاق عمل هذه الهيئة في المجتمع اللبناني باسم «التجمع النسائي الديمقراطي»... مؤلفةٌ من سبعة أعضاء، هي: زوجة الأمين العامّ، وثلاث زوجات لأعضاء المكتب السياسي، وشقيقة زوجة الأمين العامّ، فضلًا عنّي - وزوجي ليس سوى عضو لجنة مركزية - ووداد غير المرتبطة بأيّ «رابط» شبيه، سوى صداقتها العميقة مع زوجة أحد أعضاء المكتب السياسي. أعترض على هذا التشكيل، وأراه غير منصف في حقّ بقية الرفيقات النسويات، المواطنات البسيطات، غير المتزوجات من قادة. لكن الجواب هو مثل سابقيه: نفّذ ثمّ اعترض، وإذا كان هناك ما لا يعجبك، فغيّره من الداخل، ناضل من الداخل، ولا تخرج بتقويماتك السلبية عن الأُطر الداخلية لمنظمتنا، ومثل هذه القواعد الأولى للعمل الحزبي.

بعد القطاع النسائي، وبعد أن أكمل مهمتي حتى نهاية المؤتمر التأسيسي، أطلب نقلي إلى قطاع آخر؛ لأنّ «نضالي الداخلي» من أجل تحسين أوضاع هيئتنا النسائية لم يؤدِّ إلى شيء، في حين كانت خلافاتي مع مندوب المكتب السياسي تكبُر، ويُصبح احتواؤها أمرًا غير ممكن. الرفيق جوزيف يقترح نقلي إلى القطاع الإعلامي؛ أيْ

إلى العمل في مجلة **الحرية** التي تصدرها منظمتنا. أفرح طبعًا، على الرغم من أنّني لا أجيد اللغة العربية. أنخرط في الهيئة وأبدأ بترجمة المقالات، وأكثّف جهدي لتحسين لغتي العربية؛ عبر المواظبة على قراءة روايات نجيب محفوظ التي لا أفهمها كلّها.

كانت لغتي العربية تتطور تطورًا حثيثًا، لكنّني لم أكن أستسيغ البتّة تلك الطريقة في كتابة الافتتاحية، تلك الطريقة التي تشعرني أنّ نقاشاتنا الأسبوعية كلّها حول الأوضاع والمواضيع السياسية، لا قيمة لها، ما دام رئيس التحرير لا يكتب افتتاحيته إلا بعد أن يكون قد اجتمع بالأمين العامّ الذي يطلعه على «مجمل الوضع خلال الأسبوع»، وعلى «الخطوط العريضة» الواجب صياغتها في الافتتاحية. وهكذا، أفاجأ قليلًا في البداية بـ «الموقف» البعيد أحيانًا عن نقاشاتنا. فكأنّ هذه النقاشات في مكان والافتتاحيات في مكان آخر.

أنتبه بعد حين إلى أنّ لديّ مشكلة مع القيادة والقادة. ثمّة شيء عميق في طبائعي يرفضهم. لا أطيق من يأمرني، من يُملي عليّ مواقفي. كان صدامي كلّه معهم. ففي مركز الشياح، كان الصدام مع الرفيق فريد ونظرائه من الرفاق الزائرين المحمّلين بالقدر الأكبر من التبجيل و«التمليس». وفي القطاع الطلابي، كان الصدام مع تشنّج الرفيق المسؤول بطرس. وفي القطاع الشعبي؛ بسبب تعاطفي مع الرفيق المتمرد صلاح. ثمّ في القطاع النسائي وما تعلّق به من زوجات أعضاء المكتب السياسي. والآن في المجلة وأوامر الافتتاحية وأشباهها من التعليمات الإعلامية... كلّها أصطدم بها، أنقدها، أقاومها بمزاج غاضبٍ «على طول الخطّ».

عندما يكون ردّهم أنّ النضال الداخلي كفيل بتصحيح الشوائب الزعامية، أنظر إلى «خطّنا»، ولا أجد فيه سندًا سياسيًا لتطلعاتي الحزبية التي تريد تغيير مجتمعها. ففي السياسة العامة، لا تبدو منظمتنا مختلفةً عن غيرها من المنظمات، إلا بادعائها «الطهارة». وهذا الادعاء خطِر عندما يبدأ الفساد في التسلل إلى ثنايا رجالاتها الكبار، وتكون «الحساسية الطبقية» هي دائمًا المحفِّز على النظر. ومن دون أيّ مقدمات، تنقلب حياة القائد رأسًا على عقب، وتصبح يومياته عبارةً عن إشارات بحبوحة مستجدّة، لا تخطئها العين المجردة. وفجأةً لا يركب إلا سيارات المرسيدس، برفقة حراس مسلحين، ويصبح بيته مزودًا بالخدمة والكهرباء والماء؛ فتتشكّل فئةٌ مرتفعةٌ عن سوادِ المناضلين البسطاء، أو «الطبيعيين». ألاحظ هذه الأمور كلّها مغتاظةً، وأفكّر في أنّني ما كُنتُ لأنتبه إلى ذلك كلّه لو كنتُ زوجة أحدهم، أو لو كنت رجلًا ووقع حظي على مثل هذه الامتيازات. فهل كنت، حينئذٍ، سأرى في ذلك فسادًا أصلًا؟ وفي حال التبصّر، هل كنت سأحتج؟ أم هل كنت سأتنعّم بكلّ شيء وأُسكت كلّ صوت يحاول إدانتي؟

لكن يبقى «الخط السياسي»، الأعزّ من الأحباء. كلّما حصلت مناوشة أو قصف أو تبدل في مواقف الأفرقاء... طالعنا المسؤول بقوله: إنّ كلّ هذا حصل من أجل تأكيد «صحة خطنا السياسي». النقاشات الدائرة كلّها في الخلايا، وفي أعلاها من الرتب التنظيمية، لا تبتغي إلا قول ذلك؛ وإن اختلفت العبارات بين هيئة وأخرى، بين بيئة وأخرى. هذا الإيمان بالخطّ السياسي، هذا الاعتزاز بالثبات على الرأي السياسي، تُقابله في الواقع السياسي المعيش هشاشةٌ سياسية مكررة تتأكّل بمرور الوقت، وبسبب الأحداث السياسية نفسها،

خصوصًا تلك الأحداث الفاقعة التي تخالف خطّنا السياسي؛ الإبقاء على عزل المسيحيين عن طريق استنساخ شعارات بداية الحرب، والتقارب مع النظام السوري بعد أن كان قد دخل لبنان لحماية «الأطراف المسيحية»، والموقف المُغمْغم من الاتحاد السوفياتي الذي لا يبخل المنشقون عنه بكتابة ما يفضح نظامه القمعي الفاشل، وقبلهم العجز التامّ عن السيطرة على أيّ حدث؛ حتى لو حصلت وقائعه في زقاق أو قرية صغيرة. كلّ هذا مع اعتداد بـ «الخطّ»، مع تقديسٍ لـ «الخطّ»، يردع - في البداية - عن أيِّ سؤال، أيِّ نقد، أيِّ خلاف مع القيادة؛ إذ يقول المرتاب في نفسه: من أين لي أن أثق بنفسي تلك الثقة كلّها حتى أتطاول على الخط؟ لكنْ مع مرور الوقت، لا بدّ للخطّ - بعد أن كان من المقدّسات - أن يتعرّى. تكفي مجريات محدّدة، أو حادثة، أو انفجار أمني، ليبدوَ الخط نفسُه مثل زجاج رقيق غير مقوّى يرشقه الصبيان من بعيد. وهذا تمامًا ما يحصل لي. ففي أواسط عام 1981، تتعرض مدينة «زحلة» الكاثوليكية، في البقاع، لحصار دامٍ من قوات الجيش السوري، بمشاركة قوات من الحركة الوطنية، ويكون القصف والقنص من نصيب أهلها. أمّا «الجوقة» الخارجة عنها، فهي تتغنى بهذا الحصار؛ إذ تعُدّه ردًّا على «مؤامرة إسرائيلية» تريد أن تضرب «قلعة الصمود والتصدي» السورية. إنّ الفظاعة عينها، بالنسبة إليّ، هي أن توقّع منظمتنا - ذات الأسس العلمانية - بيانًا مشتركًا مع الحركة الوطنية اللبنانية يدين أهل زحلة، ويستخدم عبارات طائفيةً شبه صريحة في تغطيته حصارهم وقصفهم. كانت القشّة... أقدّم استقالتي. فيطلب منّي الرفيق فريد التريّث، لعلّني أقتنع، من خلال النقاش معه، بالعدول عن الاستقالة. ويكون يومان «ماراثونيّان» من «الأخذ والردّ» في مركز المنظمة في شارع عفيف الطيبي. تتخلل هذين اليومين غارات إسرائيلية على

مبانٍ لمنظمات فلسطينية قريبة في شارع «الفاكهاني». يدافع الرفيق فريد عن «الخط» دفاعًا مستميتًا، مصطنعًا الحجج و«الحيثيات»، في لهجة يصيبها فجأةً نوع من التواضع المفتعل... كلّ ذلك يكون مفعوله عكسيًّا، ويجعلني أتمسك باستقالتي أكثر فأكثر.

أخرج من المنظمة كأنني أواجه الحياة بمفردي. زوجي يبقى فيها، فتمتد غربتي داخل البيت. أترك المنظمة وحدي، وليس مع مجموعة كما حصل في السبعينيات؛ فلا أحدث جلبةً. هكذا، أخرج ببساطة أكبر ممّا دخلت، إلا أنني أخرج بإحساس مختلف، فتحوّلت الآمال العارمة إلى فشل سياسي ذريع؛ فشل تجربة دامت ثلاث عشرة سنةً، عليّ اجتراع مرارتها. أعرف ذلك. أدرك أنّ الخروج من المنظمة أمرٌ يشبه الطلاق؛ قطيعة مع عالم قائم بذاته كان يشكّل محورًا لحياتي، محورًا لـ «اجتماعياتي»؛ من سهر، وأعياد وغداء، وعشاء، وريف، ورحلات... رأس السنة، البحر، الأولاد. مجتمع «عضويّ» الملامح؛ الناس بداخله منسجمون بعفوية، من دون مقدمات ولا شروح؛ مجتمع مؤمن بفكره، بصحة خطه، مهما حصل... كلّ هذا ينتهي بالنسبة إليّ، وعليّ أن أبنيَ عالمي الجديد، مع أنّ عالمي القديم لا يبارحني. لكنني الآن حرّة. حرّة في الانتقاد العلني، في السخرية من تجربتي، من «الخطّ»، ومن نفسي أيضًا.

الاجتياح الإسرائيلي للبنان (1982)

شهر حزيران/يونيو شهر الحروب. قبيل الرابع منه، يتعرض السفير الإسرائيلي في بريطانيا لمحاولة اغتيال فاشلة، تنفّذها مجموعة فلسطينية موالية لدمشق. فتكون حجة إسرائيل القوية في اجتياح لبنان لطرد التنظيمات الفلسطينية كلّها الموجودة فيه. في الرابع من حزيران/يونيو 1982: أوصل أخي هشام إلى منزل أهلي في كورنيش المزرعة. نقترب من مبنى منظمة التحرير الفلسطينية الواقع في أواسط خطّ الكورنيش، المتقاطع مع جسرٍ قَيد الإنشاء، اسمه «جسر الكولا». فجأةً، نسمع دويًا كبيرًا، وينبعث الدخان الأسود من الجنوب، في المدينة الرياضية التي لا تبعد عنّا أكثر من كيلومترين. أوقف السيارة بمحاذاة الرصيف، وأركض أنا وأخي نحو أقرب بناية لنحتميَ ممّا لا نعرف مصدره حتى الآن. نسأل المارة عمّا يحدث، لكنّهم لا يعرفون. يجيبنا رجل تبدو عليه ملامح في منتهى الجدية بأنّ الطائرات الإسرائيلية تقصف بيروت. أُوصل أخي إلى بيت أهلي وأنطلق بسرعة جنونية نحو بيتي في حارة حريك، لأجد عائلتي الصغيرة في انتظاري. ماذا نفعل؟ أين نذهب؟ كيف نحتمي؟ من أين نأتي بالطعام؟ الحياة تتوقف فجأةً، أو بالأحرى تفرض ضروراتها القصوى. علينا أولًا الاحتماء من الطائرات الإسرائيلية، وبعد ذلك نتكلم. المكان الممكن الوحيد الآن هو الملجأ. ننزل

إليه، مع الجيران، مزودين بالبطاريات وبعض الطعام، وبـ «شرشف» لتغطية ابني همام. يصلح الملجأ في الأيام العادية لأشكال الآلات الخربة أو الصالحة كلها. بعضها متوسط والآخر صغير. وكلّها تَرشح منها رائحة زيت صناعي أسود، يوحي بالاتساخ، وهو لا يريح على كلّ حال. بعضنا يفترش الأرض بعد أن يضع عليها أوراق الجرائد و«الشراشف»، وبعضنا الآخر يجلب معه كرسيًّا، ويحاول أن ينام فوقه. شتان ما بين هذا الملجأ والملاجئ التي بقينا سنوات ننادي بإفراغها وتنظيفها لتليق باستقبال المختبئين من مقتلة الحرب. الآن جاء دور الإسرائيليين، بعد محاولات شتّى في الجنوب، وأخرى متفرقة هنا وهناك في العاصمة. لذا، يجب أن يكون الاحتياط من الموت الإسرائيلي أكثر دقةً لأن سلاحه متعدد؛ فهو برّي وجوي وبحري، وكلّه سلاح مُسخّر لطرد الفلسطينيين من لبنان، ولتدمير الأحياء والمناطق التي تحتضنهم.

يثنيني عن البقاء في هذا الملجأ القذر كائنٌ واحد: جرذٌ يكاد يكون في حجم خروف يطلّ، فجأة، قادمًا من عمق سواد الملجأ، من غير انتظار. يمعن النظر بعينين ملتمعتين، متفحصتين، جشعتين، لا تكتفيان باصطياد الفريسة وقضمها... يذكّرني الجرذ بلُبنى، وهي صديقة لمنظمتنا من سكان الشياح كانت تحظى بأبهى جمال. كانت في بداية الحرب، منذ ستّ سنوات، قد لجأت إلى ملجأ البناية المحاذية لبيتهم القروي. وهناك، هاجمها جرذ من الجرذان التي أتخيلها، وقضم شفتها السفلى. أدّت العملية «التجميلية» التي عالج أحد الأطباء خلالها تلك الشفة إلى تشوّهها تشوّهًا دائمًا، وانزوائها، ومعاناتها الشديدة، حتى إنّها أصبحت لا تخرج من البيت إلّا للضرورات القصوى، وحينئذٍ تغطي شفتيها بقطعة من القماش

الأسود غير الشفاف. الجرذ يُفزعني، يشغل مخيلتي «الكوارثية»، أتصور نفسي كيف يكون أمري، لو اقترب هذا الوحش من ابني، وقضم شيئًا منه. أبقى طوال الليل حاملة ابني، حتى لا ينام على الأرض، وأنا جالسة على كرسيّ.

في اليوم الثالث من القصف المستمر على منطقة المتن الجنوبي بأسره، نقرر الانتقال إلى حيّ أكثر هدوءًا من هذا الحيّ، فنشدّ الرحال نحو الزيدانية، في العمق البيروتي، حيث يقدم لنا أحد الأقارب شقةً في الطابق الذي فوقه طوابق عدة؛ أي إنّه مكان آمن، على الأقلّ، من القصف الجوي.

نحمل أمتعتنا الضرورية، ونتجه نحو الزيدانية. كان علينا اقتسام الشقة مع عائلة شقيق زوجي وزوجته وابنه. علينا الآن تنظيم حياتنا وأمزجتنا وطبائعنا وطرائق عيشنا. عائلتان في شقة واحدة، ولو كانت لإخوة أشقاء، بين زوجتيهما مئة اختلاف واختلاف... كيف ننام؟ ومتى؟ كيف نطبخ؟ ماذا نطبخ؟ كيف نتفق على ماذا نطبخ؟ كيف نغسل؟ كيف..؟ كيف..؟ لا تنتهي التساؤلات طوال النهار، ما دام بعضنا في وجه الآخر. لا نفعل شيئًا غير محاولة الاستمرار على قيد الحياة؛ وذلك تحت ضرب إسرائيلي يبدو لنا أكثر منهجيةً، وأقلّ خطرًا من الضرب الذي تمارسه الأطراف المحلية الفلسطينية واللبنانية المتصارعة. تصاحب أوقاتنا الميتة لعبة «السكرابل» العربية التي نتعلمها بسرعة مع قنينة البيرة الباردة جدًّا، والفستق معهما؛ وذلك في الأوقات التي يكون فيها الضرب الإسرائيلي بعيدًا نسبيًا، بطبيعة الحال، أو يكون في تقديرنا، الخاطئ أحيانًا، غير مؤذٍ لنا.

لكنّ الإسرائيليين سرعان ما يَصِلون إلى بيروت، فيطوّقون

القسم الغربي منها بمساعدة الميليشيات اليمينية. الحصار قاسٍ جدًّا. فالمياه تنقطع وكذلك الكهرباء، والمُؤن تزداد شحًّا وغلاءً. يصبح الخبز عملةً نادرةً؛ لذا علينا، أولًا، القيام بعمليات بوليسية خطِرة لنحصل عليه. لم يكن يوجد في ما تبقى من سوق الخضار، في الدكاكين المنتشرة في هذا الحي، غير البطاطا والباذنجان و«البندورة». أمّا اللحم، فكان غير موجود تمامًا وما من أملٍ في شأنه على الإطلاق. وفي ما يخص الماء، كنّا نحمل الغالونات الفارغة في الصباح الباكر نحو عين من العيون البيروتية المنتشرة هنا وهناك. نملأ ستة أو سبعة منها، ونحملها في السيارة، ثمّ نحملها خلال أربعة طوابق إلى أن نصل الشقة لاهثين. تقتضي ندرة المياه التعامل معها بكثير من العناية. مياه الشطف هي نفسها مياه الحمّام: نفرك أنفسنا بالليفة والصابون فوق طشت فارغ، «نتفوّح» فوقه أيضًا، وبعد أن ننشف بسرعة، نحمل الطشت ونرمي مياهه على الأرض التي تحتاج إلى شطف، لكثرة ما حطّ بها من «نفناف» القذائف وروائح البارود. وكلّ يوم، كانت السيرة هي نفسها. وكان هذا النوع من الاقتصاد ينطبق على باقي أنواع النشاط التي تحتاج إلى المياه. فمياه غسْل الخضار، تذهب إلى الحمّام. ومياه الشرب، مياه الطبخ، مياه الاغتسال... كلّها بحساب صارم دقيق. ندرك أنّنا في اليوم التالي سوف نعيد الكرّة ونحمل الغالونات إلى النبع مجددًا. لا أعرف حتى الآن مدى صحّة خبر مفاده أنّ نقص المياه في بيروت الغربية أثناء هذا الحصار كان قاسيًا إلى حدّ أنّ الرئيس الأميركي رونالد ريغان، أمر وقتها الإسرائيليين، بصرامة، أن يعيدوا المياه إلينا. قوّة «الخبرية» في أنّ المياه عادت فعلًا، لكن أيضًا بشحّ واضح.

أمّا الكهرباء، فأمرها لا يتغير مقارنةً بباقي أيام الحرب.

لذا، إنّنا مستعدّون لنقصها الحادّ، و«الله يخلّي اللوكس»؛ تلك «الولاعة» التي تبعث الحرارة والضوء، وتؤنس ليالينا التي لا تطول على كلّ حال في شهور الصيف... وهذه رحمة أخرى تضاهي نقمة الانبعاثات الحرارية الخارجة من اللوكس، أو الطافحة منه. كانت ثمّة وسيلة أخرى تلقى رواجًا وسط محبِّي مونديال كرة القدم؛ ذلك أنّهم يُنزلون التلفزيون إلى السيارة، ويشغلونه ببطارياتها لمتابعة اللعبة. إلا أن الطعام هو الذي يطرح أكبر مشكلة. علينا تدبّر تنظيم الدخول إلى المطبخ بعدما تبينت استحالة تعايشنا فيه مع بعضنا بعضًا. أتفق مع «سلفتي» هكذا: «يوم لي ويوم لكِ». لكن ماذا نطبخ؟ هذا هو السؤال الأهم. تتوافر البطاطا أكثر من الباذنجان، وما دامت أكثر إشباعًا منه، فمن الضروريّ أن أركّز عليها. أقول لنفسي «سوف أجد جميع الطرائق نحو البطاطا». هكذا «أخترع» أربع عشرة طريقة في طهي البطاطا: البطاطا المسلوقة مع البيض المسلوق، وفوقها زيت زيتون وكمّون وعصْرة حامض؛ والبطاطا «السوفليه»، وهي تُطبخ مع اللحمة المفرومة أساسًا - أما الآن فمن دونها - بعد هرسها، وإضافة قليل من الزبدة والحليب إليها، ثمّ وضعها في الفرن حتى يتحمَّص سطحها الذي تذوب فوقه الجبنة في حال توافرها؛ و«كبّة» البطاطا، وهي بطاطا مسلوقة ومهروسة، تُخلط بالبرغل والبهارات، وتُقدم مثل «الفواكه» الجنوبية، كأقراص صغيرة مستطيلة مكوّرة؛ و«يخْنة» البطاطا، وتكون قطعٌ منها مقليةً بزيت الزيتون وفوقها الكزبرة والثوم وعصْرة الحامض، وإلى جانبها أرز مطبوخ، فهي من صنف «اليخاني»؛ والبطاطا «المحرْقصة» المقلية مع شرائح من البصل، وفوقها البهار الأسود؛ والبطاطا «الحرَّة»، بمكعبات صغيرة، ومعها بهارات الحرّ والكزبرة الخضراء والناشفة؛ والبطاطا «المتبّلة»، أو سلطة البطاطا، وهي

تكون «مسلوقةً» ومقطعةً، ويكون معها ثوم وحامض وزيت زيتون؛ وبطاطا الفرن، وهي شرائح مع بندورة وصلصة البندورة؛ والبطاطا المقلية بأشكالها العريضة، والنحيفة مثل «الفرنسية»، وهي التي تكون حلقاتها رقيقةً أو سميكةً؛ والبطاطا بالباذنجان، وهي التي تُقلى قبله، ثمّ يُضاف الباذنجان ويُقلى، ويُطفأ كلّ منهما بالحامض؛ والبطاطا المحشوّة بالبندورة والباذنجان، وهي التي تطبخ في الفرن، مع صلصة البندورة والحامض...

الاجتياح الإسرائيلي للبنان (1982)
(تتمة)

الطعام، المياه، الكهرباء، أزيز الطائرات الإسرائيلية وقاذفاتها، القصف البحري الآتي من الغرب، القصف البري من الجنوب والغرب، ثمّ الحصار. لا شيء من الشاعرية في هذا كلّه. كان صديقي سليم، وهو شاعر مقيم في باريس، يعتقد أنّه لو عاش الحرب، لكانت ألهمته - مع نوعٍ من الروتين الإداري - إذ تستيقظ كلّ صباح على لائحة أعمالك، على مهمات رتيبة ومتعبة تضمن استمرارك على قيد الحياة.

لا أريد لابني أن يستمر في الخوف من القمر، ولا أن يعتقد أنّ القمر، قُبيل اكتماله وعندما يصبح بدرًا، عبارة عن قنابل ضوئية يرميها الإسرائيليون فوق رؤوسنا لإنارة مواقع ضرباتهم. نقرر إيصال ابني وابن أختي إلى صيدا. فهناك اكتمل الاجتياح الإسرائيلي، ومن ثمّ فلا حاجة إلى القصف. هناك أيضًا سيحصلان على رعاية كلّ من جدهما وجدتهما.

كي أخرج من بيروت المحاصرة بسيارة أجرة، عليّ المرور على المتحف، على الحدود الفاصلة بين منطقتنا الغربية والمنطقة الشرقية، حيث تسود الميليشيات المؤيدة لإسرائيل، وحيث

تدقق الحواجز الإسرائيلية مع العابرين، طالبةً هوياتهم ومفتِّشةً سياراتهم. بعد المتحف، علينا المرور من الطرقات غير المعبّدة، فلا يجد السائق غير طريق حيّ السلّم - الليلكي، وهو عبارة عن شبه غابة محاطة بالأشجار، على جوانبها بيوت فقيرة يرى السائق أنّ الإسرائيليين لا يحتاجون إلى قصفها. لكنه مخطئ. فالقذائف تنهال فوق رؤوسنا وتتحوّل قيادة السيارة إلى رقصة متوترة بين الأشجار وتحت الأغصان، ثمّ نصل إلى «خلدة»، فنسلك الطريق البحري الذي يبدو مهجورًا، حتى بلوغنا صيدا. أسلّم أمانتي إلى أبي وأمي، وأعود أدراجي إلى بيروت في اليوم نفسه، والمشوار نفسه بين حيّ السلّم وحيّ الليلكي.

الآن أستطيع أن أرتاح، ولو نسبيًّا، من الطبخ وجلب المياه وحملها إلى الطابق الرابع. أستمع من خلال الراديو إلى نداء يوجهه محسن إبراهيم، الأمين العامّ لمنظمة العمل الشيوعي، يدعو فيه رجال لبنان إلى «حمل السلاح» دفاعًا عن لبنان كله؛ سلاح يكون «تنظيمًا للمقاومة الوطنية اللبنانية ضدّ الاحتلال...» لا أنتظر باقي النداء. ولا أهتمّ بتوجيه النداء إلى الرجال فحسب، ولا بأنّني قد تركتُ المنظمة. أُصغي إلى عمق الرسالة، وأرى أنّه من الطبيعي أن يكون ردّي بالتوجه مباشرةً إلى منزل الرفيق فريد، القريب من شقتنا الطارئة؛ وهو نفسه الرفيق المسؤول الذي فشل في إقناعي بالبقاء في المنظمة. أنتبه إلى هذه «الثغرة» وأنا أمشي في طريقي إليه على القدمين. ربما ينتهز الرفيق فريد فرصة تطوعي كي يغريَني بالعودة إلى المنظمة. لكن لا شيء من هذا القبيل. منزل الرفيق فريد يعجّ بالرفاق، وربما بالهاربين من المناطق الملاصقة لخطوط التماسّ الجديدة. أتقدم بحماسة وأقول إنّني أريد تلبية نداء الرفيق الأمين

العامّ، أريد أن أحمل السلاح ومواجهة العدو الإسرائيلي. كان جواب الرفيق فريد صاعقًا: يضحك ضحكته المجلجلة، المعروفة، تلك الضحكة التي يطلقها هو نفسه على إحدى نكاته، ينتشي بها، ويقول بين قهقهة وأخرى:

- وهل تصدقين هذا الكلام يا رفيقة؟

- ...؟!

لا أعرف بما أجيب. أحسّ الندم. «لن أتمكّن من محاسبته» أقول لنفسي. طبيعي أن ينقضّ عليّ الآن، بعد أن خيّبت أمله في البقاء؛ بعد أن «طلع الشعر على لسانو»، كما استنتج هو من لقاءاتنا المطوَّلة غير المجدية.

- نعم صدّقتُ هذا الكلام. وهل التصديق فعل شائنٌ يا رفيق؟

- لكنه قال «يا رجال لبنان»، ولم يقُل «يا رجال ونساء لبنان»... ها ها ها!

أخرج من منزل الرفيق فريد بمرارة وسعادة. صحيح أنّه لن يُتاح لي فرصة مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، غير أن تلك الظنون التي واكبتني طوال الشهور الستة الماضية ذهبت كلّها إلى غير رجعة أيضًا. كنت على حقّ كاملٍ حين تركت المنظمة ولم أثق بـ «حجج» الرفيق فريد التي حاول من خلالها إبقائي فيها. بعد أن تعقّدت أمور الحصار وهربت عائلته إلى باريس، ها هو نفسه الآن، في أواخر الغزو يختبئ طوال النهار في أحد المنازل، وهو عاطل من العمل، مستمتع بوقته، وبما يقي به المنزل من «خدمات» المياه والكهرباء، وربما اللحم أيضًا.

هكذا تمضي باقي أيام حصار بيروت وقصفها وتعذيب سكانها. أستعيد ابني وابن أختي من صيدا، بعد أن يتمّ الاتفاق من خلال المبعوث الأميركي، فيليب حبيب، على إجلاء المنظمات الفلسطينية من بيروت، وأستعد للعودة إلى منزلي. وفي اليوم المحدَّد لوقف إطلاق النار، أحمل «صُرَري» المملوءة ثيابًا وطعامًا و«عدّة» النزول إلى الملجأ. ثمّ أتجه إلى منزلي في حارة حريك، في المتن الجنوبي. وعندما أصل إلى هناك، لا أصدق عينيّ: واجهة شقتنا التي تتصدّر غرفة النوم والصالون مدمّرة. لقد تلقّت ضربةً بَحريةً من الغرب. كان يغطيها الغبار الكثيف الذي يخفي تفصيلاتها الجميلة، لتبدوَ كأنّ دمارًا شاملًا قد أصابها. وهذا المشهد يصيبني بنوع من الانهيار. أرمي نفسي على الرصيف المقابل لعمارتنا، أجلس على طرفه، وآخذ في البكاء الشديد واللّطم على خدَّيَّ وترديد كلمة واحدة «راح البيت..! راح البيت..!»، حتى يبحَّ صوتي وأخجل من المتفرجين عليّ. هكذا، أستجمع نفسي، أخفّف عنها قليلًا بالشكر لله أنّ ما جرى لواجهة منزلي ليس سوى ضريبة مادية. أتحسّس ابني إلى جانبي، أتشجع من خلال طبيعة الخسارة، وأصعد إلى المنزل، وأدخله لأجد حجارة الواجهة كلها داخل الصالون وغرفة النوم.

الدمار في الخارج يبدو أقسى من الداخل. أرتّب في ذهني طبيعة الخسائر: الحجارة أولًا، نحتاج إلى حجارة أخرى، إلى رصّ بعضها فوق بعض، ثمّ «توريقها» ودهنها. يبقى زجاج النوافذ والأبواب، ولا يمكننا تأجيل كلّ ذلك إلى ما بعد التنظيف والشطف؛ لأننا في أيلول/سبتمبر والشتاء والعواصف على الأبواب. المشكلة أنّ جميع البنّائين و«الورّاقين» والزجّاجين

تواروا عن الأنظار، ولم تعُد تجد واحدًا منهم في منزله. كأنهم تبخروا! لذلك أقرّر أن أقوم بكلّ شيء بيديّ. أشتري الحجارة والإسمنت والزجاج والمعجون وأنكبّ على إصلاح كلّ شيء من دون مساعدة المتخصصين. أشتغل بحماسة عالية، طاقاتي التي شُلّت خلال الشهور الثلاثة من الحصار الإسرائيلي انفجرت فجأةً، وصارت حركتي آليّةً لا تهدأ من أعمال التصليح، وصرتُ أنصح الجيران بمُورِّدي الزجاج، وبسُمك المعجون وطريقة وضعه بين الحديد والزجاج...

فيما أنا «غاطسة» في هذه الورشة، كنت أسمع من الإذاعة أنّ المنظمات الفلسطينية جمعت رجالها في جامعة الدول العربية، وهي الآن في طريقها إلى مرفأ بيروت، وسوف تصعد إلى المراكب التي ستوزّعها بين بلدان عربية أخرى.

مثّل الخبر، بالنسبة إليّ، منعطفًا تاريخيًّا. فعلى الأقلّ، عليّ المشاركة في الموكب المودِّع. لا أغيّر ثياب «الشغل»، ولا أزيح الربطة التي «تضبّ» شعري. آخذ ابني معي وأركب السيارة لعلّنا نحظى بوداع شخصيٍّ لبعضهم. هكذا نتجه - نحن الاثنين - نحو المرفأ، بعد أن أُفهم ابني أنّنا ذاهبان لوداع رفاقنا الفلسطينيين. ومع اقترابنا من المرفأ، ينال منّي بكاء منتظر. أسترسل في ذلك البكاء... أعرف معناه. هل يجاريني ابني في البكاء وهو الذي بلغ لتوّه عشر سنوات؟ ولماذا هو يبكي؟ لا أقدر على الكلام، ولا على سؤاله، أو مواساته في حزنه. يبكي بلَوعة كمن فقدَ غاليًا، بما يشبه النضوج العاطفي. نبكي نحن الاثنين، نتمادى في البكاء، لا أكاد أرى الطريق، أضيع مرةً في دهاليز مداخل المرفأ، ثمّ أجد الطريق مرّةً أخرى، كلّنا في حالة من البكاء. هكذا، حتى نصل إلى هدفنا، فنجد

أمامنا جمْهرةً من الناس، مثلنا، باكيةً حزينةً، مودعةً سنوات من الصحبة والألفة، سنوات من الأعياد المشتركة، من المهرجانات، والمخيمات، والمكاتب المشتركة... عيد فتح خصوصًا، والعروض الفنية والعسكرية قبالة جامعة الدول العربية، وغيرها، وغيرها... ربما نبكي مجهولًا ينتظرنا... الجلاء الفلسطيني لا يبدو إلا نهايةَ حقبةٍ، لا نهايةً للحرب.

خطف إسماعيل (1982)

يحدث شيء ما بالقرب منّا. لا نعرف ما هو تحديدًا. نحدس أنّه أمرٌ مريب، لكننا لا نلمس غير هدير قريب وقنابل مضيئة وروائح بارود. ثلاث ليالٍ.. كأنّ التجول ممنوع، أو هو ممنوع حقًّا، أو أنّنا نشعر بأنّه ممنوع. المناخ خريفي الآن، غيوم ونسمات ليلية، بعد صيف كان الأرحم من بين فصول الصيف التي سبقته. يساعد المناخ على تخمين ما هو أسوأ. ثلاث ليالٍ متتالية، ثمّ تبدأ الأخبار، ببطء، بـ «التقطير»، وبعد ذلك مثل فَيضان. مع أنّ منزلنا لا يبعد عن مخيم شاتيلا إلّا كيلومترين، أو ثلاثة كيلومترات، إلا أننا لا نحزر شيئًا. على هذا البعد القريب، في مخيمَي صبرا وشاتيلا، ارتُكبت مجزرة أخرى في حقّ الفلسطينيين وجيرانهم اللبنانيين الفقراء الذين وجدوا في السكن في المخيم أجرًا زهيدًا يقدرون عليه. طوّق مخيمَهم الإسرائيليون، وأزاحوا كلّ صحافي يحاول تغطية تحركهم، وراحوا يغطون حلفاءهم من اللبنانيين، وهم يقتلون رجالًا، نساءً، أطفالًا، شبابًا، عجّزًا؛ خبَر المجزرة القريبة... الخبر الذي يحضر بعد حدوث المجزرة، يحلّ كالمصيبة غير المفهومة: هل ينتقمون من مقتل بشير الجميل؟ ليس هناك سؤال غيره. ومع السؤال، حسرة وعجز. هل بقيَ كائن حيّ في المخيم؟ هل بقيَ شهود على المجزرة؟ لا نعرف. يزداد إحساسي بالجهل والعجز. يضاعفه أنّني أسكن بجوار المخيم، تقريبًا.

كان عليّ، أيضًا، تصليح النوافذ، وتركيب الزجاج. عليّ الركون قليلًا في البيت، لأخذ النفس، كي أحكيَ شيئًا لابني، أقرأ له قصة، أصفّ معه سيارات الـ «ماتش بوكس».

في الصباح الخامس، أو السادس للمجزرة، يُدقّ الجرس في البيت. أفتح الباب، وأجد ثلاثة عساكر حاملين بنادقهم.

- هذا منزل إسماعيل..؟

- نعم...

- هل هو موجود؟

- نعم... ماذا تريدون منه؟

- نريد أن نطرح عليه بعض الأسئلة.

يحضر إسماعيل بلباس البيت، يمسكونه من ذراعه كأنهم يقبضون عليه، وينزلونه الأدراج بسرعة. ألحقهم بالسرعة نفسها. وفي الشارع، أريد أن أُشهد الجميع على أنّ هؤلاء الرجال الراكبين جيبًا عسكريًا، أخذوا زوجي إلى مكان مجهول، لا يريدون الإفصاح عنه... أصرخ كي «ألمّ» أكبر عدد ممكن من الشهود. يمرّ بالقرب منّا أجنبيان، أسألهما إن كانا من الصحافيين الذين يغطّون أخبار المجزرة. يجيبان: «نعم». فأقول لهم بالفرنسية:

- إليكما خبرًا آخر، هذا الرجل الذي يحملونه بالقوة إلى سيارة الجيب هو زوجي، وهم أخذوه من البيت، من دون أيّ سند، من دون أيّ سبب، هل حفظتماه؟ اسمه إسماعيل...

كان الصحافيان مشدوهَين كأنهما لا يفهمان ما يحصل. لكنّ

قائد المجموعة الخاطفة الذي تبدو عليه ملامح الثقة بالنفس يُنذرني بأشد العبارات:

- إذا بقيت تصرخين و«تلمّين» الناس... فسوف تلحقين به!

لا أردّ على تهديداته، أستمر في الصراخ، وأنا خائفة منه. لكنني أبدو كأنني شجاعة، أبدو كمن لا يأبه. إشارة واحدة من زوجي تومئ إليّ أن أتوقف وأن أصعد إلى البيت، كأنه فهم أكثر منّي القصد الحقيقي الذي يقف خلف هذا الخطف - الاعتقال.

هنا تبدأ حياتي الجديدة، وتستمر شهرين ويومين. جميع مَن حولي، أهلي وإخوتي وأصدقائي، كانوا كلّهم على خطّ واحد؛ نصيحة واحدة: يجب ألّا يتسرّب شيء إلى الصحافة. وإذا أردتِ إنقاذ زوجك، فعليكِ اتباع «الاتصالات الخاصة»، عبر مَن تعرفين من شخصيات مؤثِّرة من الأقارب الذين تعرفينهم، خصوصًا الوجهاء منهم، أو الذين عليكِ التعرّف إليهم. هذه الحياة الجديدة تستنفرني طوال النهار؛ من الصباح الباكر حتى نهاية الليل. أدور من اسم إلى آخر، من موعد إلى آخر، من منزل فاخر إلى آخر أكثر فخامةً. أريد أن أعرف أين هو، لماذا خطفوه - اعتقلوه؟

بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، يزورني رجل يقول إنّه كان مع إسماعيل في «الهنغار» نفسه.

ماذا؟ «هنغار»! قبل كلّ شيء، أعطني «إشارة» واحدة لأصدقك. يعطيني الرجل «إشارةً» فأطمئن.

- أخبرني الآن أيّها الرجل.

يأخذ نفسًا عميقًا، ويبدأ بوصف الحياة في «الهنغار»:

- أعتقد أنّهم جمعونا مصادفةً. نحن غرباء عن بعضنا. لم أعرف في البداية أيَّ مكان كنت فيه. عصبوا عينيّ، عند الدخول وعند الخروج، ثُمّ رفعت العصابة عند وصولنا إلى العدلية. لكنّ عنصرًا من الأمن العامّ أخبرني في أثناء خروجي بأنني كنت موقوفًا في وزارة الدفاع، في اليرزة. لماذا أخذوني؟ ربما لأنني كنت أنقل فلسطينيين قادمين من مخيم عين الحلوة في صيدا إلى بيروت. لكنهم في النهاية عرفوا أنّني بريء، ولم أتعاطَ السياسة في حياتي كلّها. زوجك يا «مدام» في حالة مزرية. لكن لم يسيئوا معاملته كثيرًا. لم أرَهم يضربونه مثل الباقين. إلا أنه في ذلك «الهنغار» يموت مئة موتة في النهار. لا أريد أن أصف أكثر من ذلك. طلب منّي أن أُطمئنك بأنّه ما زال حيًّا، وفي صحة جيدة فحسب.

أقضي النصف الأول من اختطاف زوجي وأنا أدور حول نفسي، وحول غيري، بغية إيجاد زوجي. وأفهم أنّه فعلًا «محتجز» في وزارة الدفاع، في اليرزة، بتهمة أنّه «شيوعي»، وأنّه متهم بالتورط في اغتيال بشير الجميل. عليّ في هذه الحالة أن أحذر الفخاخ، وأن أتحفظ عن الكلام. يجد شقيق إسماعيل الكبير، بعد اتصالات مع أحد أعيان العائلة، السيد نبيل، وهو يعمل مورّدًا لكل ما يحتاج إليه الجيش من لباسٍ وعتادٍ غير عسكري. وبفضل هذه الواسطة العائلية، يُسمح لنا بزيارة إسماعيل في اليرزة.

«رتِّبي نفسك، اِلبسي «التايور»، ودَعي بنطلون «الجينز» جانبًا. واذهبي عند الحلاق ليصفف شعرك». تلك هي تعليمات شقيق زوجي، «سلْفي»، عشية الموعد في السجن. كان قصده من خلال هذه النصيحة؛ من بنطلون جينز وشعر «فالت»، ألّا أبدو «هيبيّةً»، أو «شيوعيّةً» مثل زوجي. فربما يرأفون به أكثر إذا انطبع في أذهانهم

أنّ زوجته «شيك»، ولا تبالي بغير أناقتها، وأنّها لا تهتمّ بالسياسة ولا بالأحزاب. نتوجه، إذًا، إلى اليرزة حيث ينتظرنا السيد نبيل. التفتيش والحواجز والأسئلة عن الهوية، والغرض من الزيارة مع الشخص الذي أوصلنا إلى هنا. ثمّ نزولًا إلى تحت الأرض وممارّ لا تنتهي، نمشي، وقلبي مثل ساعة طارت عقاربها. أكاد أُجَنّ من شدة الانفعال، غير أنه عليّ في الوقت نفسه أن أبدوَ قويةً أمام إسماعيل؛ أقول لنفسي: كي يقوى بقوّتي... ندخل أحد المكاتب وننتظر ونحن واقفان. يطلّ علينا إسماعيل من باب آخر، فيبدو لي مثلَ مراهق يرفض أن يكبر. حذاؤه من دون ربطات، مطويّ من الخلف؛ مثل «شحاطة»، بنطلونه وقميصه لم يغيرهما منذ شهر، كأنهما مرّت عليهما سنوات، وهو لا يقوى على السكينة. يرتجف، عندما يراني أنا وأخاه... ثمّ يبكي. نشدّ على يديه، نعتذر لأنّنا لم نجلب له شيئًا؛ بسبب منعهم إيّانا من ذلك. يبكي، ويستمر بكاؤه، ونحن كما قررنا، نمسك دمعتنا ونقول له الكلمات نفسها التي تشجّع على الأمل، وإنّ السيد نبيل، إن شاء الله، سوف يفعل المستحيل...

أخرج من وزارة الدفاع. أحتاج إلى كلّ ذرّة من كياني حتى لا أضعف أمام شقيق زوجي. أضع النظارات الشمسية. تفرّ دمعتان على الرغم مني. أمسح ما وصل منهما إلى خدّي، وأستمر في المكابرة، حتى أصل إلى بيتي. هناك، تنتظرني شقيقتي التي بقيت في البيت مع ابني. وعندما أدخل، تسألني عن «نتيجة» الزيارة. أجيبها: «لا شيء...». لا أقدر على الكلام. حنجرتي مثل قناة فارغة من الهواء: تضخّمت فجأةً، وعلقت في مكانها. أمّا الإذاعة، فكانت تبثّ الأخبار والأناشيد. يطلع صوت مرسيل خليفة، وهو يغني من آخر أبيات خليل حاوي الشاعر الذي انتحر في ثاني أيام الاجتياح

الإسرائيلي، مفجوعًا بعنف الاجتياح، وبعجزنا عن ردّه... عندما تطلع تلك الكلمات:

«يَعْبرون الجسرَ في الصبحِ خِفافًا

أضلُعي امتدّتْ لهم جسرًا وطيدْ

من كهوفِ الشرقِ، من مستنقعِ الشرقِ

إلى الشرقِ الجديدْ».

عندما يمدّ خليفة الكلمة الأخيرة «الجديد»، تنفجر دموعي، وأستسلم لبكاء طويل. صورة إسماعيل هذه ستنام أحيانًا في ذاكرتي، لكنه نومٌ خفيف، متقطع، لا يعطي وقتًا للنسيان. أحيانًا تكون هذه الصورة نائمةً، إلا أنها في أغلب الأحيان صاحية، يرتّل لها مرسيل خليفة كلمات خليل حاوي، فيشعل بذلك الحذاء المطوي، والثياب المهلهلة والدموع المغلوبة.

خطف إسماعيل (1982)
(تتمة)

أفهم، بعد خروجي من سجن اليرزة أنّ إسماعيل سوف يبقى فيه «إلى أجل غير مسمًّى»، كما يجيب أحد الضباط عن سؤالي. عليّ أن أتّخذ قرارًا بالتخلي عن «الاتصالات الشخصية»، والقيام بعمل جماعي؛ خصوصًا أنّ كلّ يوم يأتي بخبر جديد عن مخطوف أو مفقود أو معتقل... وجلّهم من «الجهة الغربية»، من بيروت الغربية، حيث أعلى نسبة من اليساريين المؤيدين للفلسطينيين. أقرّر أن أبعث بنداء إلى إذاعة «المرابطون»، أدعو فيه جميع النساء اللواتي لديهن مخطوف أو مفقود... إلى التجمع على مدخل الإذاعة، قرب بناية جامع عبد الناصر الواقع على كورنيش المزرعة. حينما كنت أبعث بهذه الرسالة، لم أكن أتوقّع أن يحضر إلا عدد قليل من النساء، وربما لم أكن أظنّ أنّ أحدًا من الناس يمكن أن يهتمّ بالأمر. أقول في نفسي إنّ ما حصل من اجتياح ومجازر وانتخاب بشير الجميل ومقتله، وانفلات الوضع الأمني... كلّ هذا ربما لا يعطي همّةً، أو شجاعةً كافيةً، أو حماسةً.

في اليوم التالي، أحضر إلى مكان التجمّع قبل الوقت المحدد. أنا هكذا؛ دائمًا مستعجلة. أبرّر كلّ مرة استئناسي بالتبكير. لكن هذه المرة، أجد نساء كثيرات سبقنني إلى مكان الموعد. يأخذ عددهنّ

في التزايد شيئًا فشيئًا، حتى يتحوّل التجمع إلى كتلة جماهيرية كثيفة، تؤلفها نساء أغلبهنّ متّشحات بالسواد، وهنّ يحملن صور أحبائهن. كانت صورًا كبيرةً وصغيرةً لشباب وسيمين مبتسمين، ذوي شوارب سميكة وشعر كثيف. بينهن سيدة، اسمها «أم قاسم»، تحمل صورتين. لم تكن تستطيع أن تمشيَ وحدها. كانت صبيتان تمسكانها من يديها، وهي مفجوعة تبكي طوال الوقت، وكانت تقول إنّ لديها مخطوفَين، لا مخطوف واحد، وإنّها أصيبت بداء السكري منذ أسبوعين. تلفت انتباهنا كلّنا، فنتعاطف معها. امرأة أخرى اسمها «أم زكور»، لديها أيضًا أكثر من مختفٍ، تحمل صورهم كأنّ مأساتها قديمة. تتكلم عليهم بقوة وحزم. لسانها لا يخشى أيّ نوع من السباب. تشتم بطريقة مضحكة، كأنها تريد ألّا تكون امرأة في لحظة الشتيمة؛ تقف مثل الرجال، ترفع يدها نحو السماء، وتغلظ صوتها عندما تريد إطلاق الشتائم. ألتقي، أيضًا، ودادًا رفيقتي السابقة في المنظمة التي اختطفت زوجَها عناصرُ غير رسمية من أمام بيتهما، ربما كان ذلك بعد يومين أو أكثر من اختطاف إسماعيل. نقول لبعضنا إنّ هذه الجمْهرة الكبيرة من النساء تستحق أن تتحوّل إلى تظاهرة. وهكذا نمشي... وبتلقائية تُكوَّن الكتلة المتظاهرة. فنتساءل إلى أين؟ إلى مجلس الوزراء حتى نرفع لرئيس الوزراء قضيتنا، ليس لنا الآن غيره. نسير إذًا في كورنيش المزرعة، وننوي أخذ المفرق المؤدّي إلى «تلّة الخياط»، ومن ثمّ إلى الصنائع حيث يقع مبنى رئاسة الوزراء.

تسير معنا صحافية جاءت لتغطية هذا التحرك، اسمها زينب. ربما أنا التي أقترح... ربما وداد. تقول إحدانا للأخرى:

- ما دام التحرّك ناجحًا إلى هذه الدرجة، ما رأيك في تأليف «لجنة أهالي المخطوفين والمعتقلين والمفقودين»؟

- موافقة، موافقة. سجّلي، سجّلي يا زينب. اليوم تألفت «لجنة أهالي...».

هكذا، تسجل زينب المبادرة، على الورق، وتنقلها ضمن تغطيتها للتظاهرة. نسير، إذًا، في التظاهرة، ثم نأخذ طريق اليمين نحو تلّة الخياط، وفي منتصفها، تُوقفنا سيارة «جيب» من سيارات الأمن العامّ، وتمنعنا من مواصلة طريقنا إلى «الصنائع». كان الشرطي المسؤول عن المجموعة في غاية اللطف والأدب. لا يدفعنا بخشونة كما يفعل رجال الأمن عادةً، بل يكلّمنا بلباقة زائدة، إلا أنه حازم في منعنا من الاستمرار. وأمام إصرارنا على إيصال صوتنا إلى مجلس الوزراء، يقترح علينا اختيار عشر نساء من بيننا لمقابلة رئيس الوزراء. كانت «أم قاسم» و«أم زكور» بينهن طبعًا، كما كنتُ أنا ووداد وأخريات، وكانت معنا زينب الصحافية.

في مقر رئاسة الوزراء، كانت النظافة والأناقة جليّتين. فأشعر بأنّنا خارج الحرب. الجميع هنا مهذّب معنا. تبدو «أم زكور» بشتائمها وصوتها العالي كأنها خارج المشهد. لا أحد يحاول إسكاتها، كلّنا يفهم حالتها، وإنْ غابت عنّا التفصيلات. ندخل إلى الغرفة المخصّصة لاجتماعات الوزراء. كانت تتوسطها طاولة بيضاوية كبيرة، نجلس كلّنا حولها في انتظار قدوم رئيس الوزراء. يدخل رئيس الوزراء الغرفة، ويجلس في صدارة الطاولة ليستمع إلى شكوانا. «أمّ زكور» مستمرة، لكن الأخريات أيضًا أُعطيَ لهن الدور، تلقائيًا، من دون تنظيم النقاش. يقول لنا «دولته» إنّ قضيتنا مهمة جدًّا، وإنّه سوف يهتمّ بها شخصيًا، ويطرحها في الاجتماع المقبل على مجلس الوزراء.

في الليلة نفسها، يطرق بابي رجلٌ، ويُظهر بطاقة «الأمن الداخلي»، ثم يطلب منّي الدخول بضع دقائق قائلًا إنّ لديه أمرًا مهمًّا يخبرني به. بعد التدقيق في هويته، وكأنّ ذلك يحميني من غموضه، أُدخله إلى الصالون. يقول لي في لهجة هادئة إنّهم رأوا صوري في تظاهرة اليوم، وإنّهم يعرفون كثيرًا عن دوري في تجميع النساء، وإنّني في حال استمراري في «هذه الطريقة»، سوف ألتحق بزوجي في المعتقل. أتلقى التهديد بهدوء مماثل، وأقرّر في لحظة واحدة أن أغادر بيتي. أحمل ابني وأختفي عند بيت خالتي، في انتظار أن «تنقشع» الأمور. من هنالك، أبعث الرسائل إلى وداد التي تتابع التحرّك، وتنظم اعتصامًا بدار الفتوى، في عائشة بكار، ومقابلةً مع المفتي لعرض القضية عليه. أتابع التحرّك من بعيد وأنا مختفية، عبر صلة وصل مع العالم الخارجي، هو ابن عمتي الذي يتبرع بنقل الرسائل.

في تظاهرة جامع عبد الناصر، أتعرّف إلى مريم جارتي في حارة حريك. وأعلم منها أنّ زوجها يوسف المسؤول في الحزب الشيوعي اللبناني، قد خُطف - اعتقل في الوقت عينه مع إسماعيل - وأنها متأكدة من أنّ كليهما حُمل على «الجيب» العسكرية نفسها. وكانت مريم قد قامت باتصالات مع نائب «تقدّمي» يواظب على زيارة رئيس الجمهورية كلّ يوم أربعاء؛ وذلك في سياق «الاتصالات الشخصية» كما تقول. من أقنعها بفائدة زيارة هذا النائب؟ ربما الحزب نفسه، لأنه على علاقة جيدة به. المهم أنّ مريم تبعث إليّ رسالة، تقترح فيها أن نذهب في اليوم التالي لزيارة هذا النائب، وأن نطلب منه أن يتكلم بشأن زوجيْنا مع رئيس الجمهورية، أمين الجميل، يوم الأربعاء المقبل، المخصّص لزيارة الرئيس؛ لعله «يضغط» على

اليرزة ويخرجهما من السجن. أوافق على الزيارة على الرغم من «التخفي»، وأعود إلى بيت خالتي.

بعد يومين من الزيارة إلى النائب الـ «تقدّمي»، جرى اتصال هاتفي بوالدتي من جيراني في حارة حريك مفاده أنّ زوجي ينتظرني عندهم. أركض إلى حارة حريك، فأجده ذا ذقن طويلة، ونحيلًا، ومعنويات مهتزة. كنت أعلم، من خلال «اتصالاتي» مع أحد القضاة، أنّ القاضي المكلف بقضيته طلب منه أن يسافر إلى خارج لبنان إذا أراد الخروج من السجن، وعليّ أن أستظهر تذكرة سفره كشرط لهذا الخروج. اشتريتُ التذكرة من دون أن أصدق الشرط. وعندما يقول لي إنّ عليه السفر في اليوم التالي، تنفيذًا للشرط، فإنّني لا أصدق ذلك. أشعر أنني خُدعت حين وقع الاتفاق على ذاك الشرط. وفي اليوم التالي، أوصل زوجي إلى المطار، برفقة أخي وصديقه. وهناك نخرج إلى الشرفة المطلة على الطائرات، ننتظر رؤية إسماعيل صاعدًا إلى الطائرة داخلًا إلى مقصورتها، ثمّ تقلع الطائرة، وبعد ذلك نعود. وما إن يدخل إسماعيل إلى الطائرة، حتى أتلاشى وأفقد وعيي قبل إقلاعها...

مع ذلك، يبقى أنّ «حظّي» في الخطف - الاعتقال أفضل من حظّ غيري. فالجهة التي خطفته - اعتقلته هي جهة رسمية، يمكنها أن تتعامل مع قضاة ورؤساء جمهورية أو وزارة، أو نواب. وعلى الرغم من ذلك، ثمّة ألف سؤال وسؤال يفرض نفسه عليّ في خلال «اتصالاتي» الشخصية؛ من قبيل الإجراءات القانونية التي تحكم مثل هذه العمليات، والقوانين التي تسمح بالاعتقال من دون تهمة أو تحقيق أو محاكمة، والتي تسمح لقاضٍ بـ «الإبعاد» من البلاد من دون قانونٍ، والتي... والتي... فعلى الرغم من هذه التساؤلات كلّها،

أبقى صامتةً، حتى لا أُفشل «الاتصال»، ومع ذلك إنّني محظوظة؛ لأنّ «الدولة» - أو شِقًّا منها - هي المسؤولة، من دون أن أعفيَ هذه الدولة لحظةً؛ ذلك لأنها كانت تتصرف مثل الميليشيات، وأحيانًا تُخفي إلى الأبد من تمكّنت من حياتهم ومماتهم. يخرج إسماعيل من السجن، فأنسحب نهائيًا من النشاط مع لجنة «أهالي المعتقلين والمخطوفين والمفقودين». وعندما تأتي إليّ امرأة تشكو من قضية مخطوف، أوصلها في سيارتي إلى وداد، وأقول لها «أتيتُ إليك بعمل إضافي!».

أنا الآن وحيدة من دون زوجي. معي ولدي، وعليّ تدبّر أمور حياتي وحياته. صديقي كمال، وهو رفيق سابق، يعطيني مسدس «كولت» ذا لونٍ فضي، كان يبدو ثمينًا. «ربما تحتاجين إليه». أضع المسدس في درج الخزانة، لكنني لا أتحمله أكثر من ليلة واحدة. أعيد المسدس إلى كمال؛ فهو يقلقني بدلًا من أن يطمئنني.

أين منظمة العمل الشيوعي من هذا كلّه؟ إسماعيل كان عضوًا في لجنتها المركزية. ومع ذلك، تختفي عن النظر، كأنها مشغولة بمهمات أعظم من السؤال عن مختفيها.

- المنظمة ليست أمّنا الحنون، ولا أبانا..!

تقول لي هيلين ذلك، مخففةً المرارة التي أشعر بها، وتتابع قولها بموضوعيتها المعهودة:

- هل أرغَمت المنظمة إسماعيل على الانتساب إليها؟ هل فَرضتْ عليه بالقوة أن يكون فدائيًا في الجنوب، ونقابيًا في بيروت وضواحيها؟ والباقي الذي تعرفينه...

- لكن... الروح الثورية الواحدة! الرفْقة، والمصير الواحد! والعصبية الحزبية الضرورية... أكانت مطلوبةً من آلات، أم من آدميين لهم قلوب وأحاسيس؟ هل أسسوا المنظمة بعقلهم الصرف؟ أم بعواطفهم القومية والطبقية والإنسانية...؟

- اِنسَي القلوب، خصوصًا القلوب... يا عزيزتي.

التهجير من حارة حريك (1984)

بعد «انتفاضة 6 شباط/فبراير 1984» التي تكرّس هيمنة القوات السورية ومنظمة «أمل» على الساحة الأمنية في بيروت الغربية وساحل المتن الجنوبي، تزورني أمي في بيتي في حارة حريك. نحتسي القهوة نحن الاثنتين، و«ندرْدش» في شأن أحوال العائلة. فجأة نسمع ضربًا قويًا على الباب، بدلًا من الجرس العادي. أركض لفتحه، فأجد أمامي شابّين متأهبين، بكامل أسلحتهما الفردية والمتوسطة، مزَّينين بجيوب من الذخيرة، على خصر كلّ واحد منهما قنبلة «رمانة». أحدهما هو ابن صاحب الشقة التي نسكن فيها، والآخر رفيقه في السلاح. لا ينتظران التحية، يدخلان إلى البيت كمن يقتحمه، ويجلسان في الصالون حيث كنت أتسامر أنا وأمّي. لا ينطقان بكلمة. وحده ابن صاحب الشقة يتصرف: يشعل سيجارة، يكاد يحرقها من توتّره وشراهته. أخرسُ أنا وأمي من هول الاقتحام. نفقد القدرة على الكلام، نحن اللتين كنّا نثرثر قبل لحظات... يسحق المدخّن سيجارته في نصفها. لا تنطفئ، فيشعل فيها النار. ومن هذه اللحظة، يبدأ الكلام:

- هذه الشقة هي ملكي الآن. أورثني إياها أبي لأتزوج فيها. عليكما إخلاء هذه الشقة خلال ثمانٍ وأربعين ساعة...

تفهم أمي منذ اللحظة الأولى أنّ هذين الشابين من طائفتها. تابعت قبل ذلك «انتفاضة شباط» بنوع من الاهتمام الجديد بالنسبة إليها. طوال عمرها لا تهتمّ بالسياسة، أما الآن فأصبح لعصبيتها الشيعية مرتكز عملي يتمثّل في تلك المنظمة التي طردت الجيش اللبناني من بيروت الغربية، ورفعت رأس الشيعة عاليًا، بعد أن صارت هي والجيش السوري كيانًا واحدًا يدافع عن لبنان ضدّ إسرائيل وعملائها في بلادنا. أمي شيعية متعصبة منذ الأزل. قبل «انتفاضة شباط»، كانت مقهورةً، حزينةً على أحوال أبناء بلدتها. لكنها بعد «الانتفاضة»، لم تعُد تخصص لهجتها المحبّبة في مخاطبة أهلها فحسب، بل صارت تعتمد لهجتها الشيعية الجنوبية لمخاطبة جميع الناس؛ لذلك، عندما دخل الشابان المسلحان، اعتقدَت بأنّهما سيرتدعان عن تهجيرنا من منزلنا بهذه السرعة والقساوة ما إن تكلمهما بتلك اللهجة.

- يا ابني... شوف نحن من ملّة واحدة... نحن نحب «أمل» ونحترمها على بطولاتها في بيروت... نحن أهل...

تقول كلامًا متقطعًا على هذا المنوال مشدّدة على لهجتها الجنوبية، وتصعّد تصريحها بانتمائها إلى الطائفة. لكنّ ذلك من دون طائل. الشاب، ابن صاحب الشقة، لا تتبدل ملامحه. يسمعها من دون إصغاء، كأنه غائب عن المكان. وقبل أن تنهيَ جملتها، إذا به ينقضّ مثل النسر الجارح عليها بـ «الجواب»:

- قبل ثمانٍ وأربعين ساعة.

رفيقه الصامت طوال الوقت يهزّ رأسه، موافقًا، مؤكدًا بثباته على سلاحه، جدية رغبة «معلّمه» في تهجيرنا من منزلنا.

يتكرر الأمر مرات عدة: أمّي ترجو، وتصعّد رجاءها، مستحضرةً في كلامها الإمام عليًّا وحِكمه، والحسين وعذابه. لكنّ ذلك من دون أيّ نتيجة غير «قبل ثمانٍ وأربعين ساعة».

في النهاية، أتدخل أنا لإنهاء «الأخذ والردّ». أسأله، ما الذي سيحصل لو أنّنا رفضنا إخلاء البيت؟ يجيبني بعد أن يشعل سيجارةً أخرى: «بالقوة... بالسلاح... تخرجون».

يحرق السيجارة عند منتصفها، كأنه يريد الإشارة إلى معنى «القوة» التي سيستخدمها، في «حال رفضنا الخروج...». حينئذٍ تصرخ أمي في وجهيهما، وهي واثقة من حصانتها:

- ألا تخجلان؟ تهددان «حُرمَتَين»، ولا رجلَ معهما؟ أهذه هي تعاليم الإمام علي؟ أهذه هي أخلاقه..؟

الشابان باردان، يبتسمان بثقة، يدركان، وهما يحملان السلاح، أنّ النهاية لمصلحتهما؛ ابتسامة ثقة وقلّة مبالاة بالإمام علي وبما تتفّوه به أمّي. ينهضان من الكنبة التي غرقَا فيها بسلاحهما وذخيرتهما، ثم يعود ابن صاحب الشقة، «العريس»، فيؤكد في كلمة أخيرة، كلّ ما سبق:

- ثمانٍ وأربعين ساعة... وإلّا...

هذا المشهد كلّه يدور في أقلّ من ربع ساعة، كانت دهرًا بالنسبة إليّ. صحيح أنّني أَلِفتُ السلاح الرشاش والقنابل، بل رائحة البارود. لكنني لم أتخيّل لحظةً أن يكون في المنطقة التي أعيش فيها من سيهجّرني من منزلي بقوة السلاح. أمّي مقتنعة بأنّ الذي حمانا ممّا هو أشدّ فظاعةً كونها شيعية. وهي ترى، من خلال

خيالها «الكوارثي» الفطري الذي غذّته أخبار جيرانها المسيحيين، أنّ المسلحَين كان يمكنهما أن يطلقا علينا النار ويهربا... أو ربّما لم يحتاجا إلى الهرب. هي مقتنعة بأنّ الناس في ساحل المتن الجنوبي، أقرانها في الطائفة، لن يحركهم شيء لو وجدونا مقتولتين داخل الشقة. لستُ متأكدة الآن من أقوال أمي. لا أريد الاعتراف بالطائفية. ما زلتُ أخجل من التفكير فيها، أو من خلالها. لكنّ أمّي تفكّر عبْرها. تعرف الحالة الشيعية الجديدة من أقربائها، من أصدقائها الكُثر، من معارفها «الأفريقية»، كما تقول، وهي مشغولة بالاحتمال الآخر. فما هي المصيبة التي كانت ستحلّ بنا، لو أنّها لم تكن شيعيةً، ولم تستحضر في كلامها عليًّا والحسين..؟

أمّا الآن، فعليَّ إيصال أمّي إلى بيتها، وأن أضع ابني عندها في أمانها. ثمّ أبدأ «جولةً» من الـ «اتصالات» مع الوجهاء أنفسهم كي أروي لهم ما حصل. في البداية، يكونون مُطمئنين بأنّ التهجير لن يحصل، وأنّه «لا يحقّ لهم...». يتصلون هم أنفسهم بوجهاء أعلى كعبًا منهم و«يأخذون ويعطون»، ثمّ بعد ذلك يأسفون. خلال أربع وعشرين ساعة، أتصل وأعاود الاتصال والاستفهام... حسنًا... ليعطونا أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة، كي نجد منزلًا آخر.

منذ تلك اللحظة، يتحوّل النقاش إلى «المهلة»، إلى البحث عن منزل. واضح جدًّا أنّه ما من أملٍ في شأن تراجع المسلّحين عن تهجيرنا من بيتنا، وأنّ المطلوب أصبح تمديد «المهلة» فحسب. وعدوا بالعودة بعد يومين، وعلينا على الأقلّ إيجاد مكان للأثاث. لذا، أسأل أحد الوجهاء: كيف تُفسِّر استهدافنا نحن؛ استضعافنا نحن؟ فيكون جوابه مؤكّدًا لحدس أمي الطائفي: أنتم شيوعيون، وسنّة، وزوجك كان مخطوفًا، والمنظمة التي كنتِ أنت وزوجك

منتسبَين إليها، أصبحت الآن هامشيةً، ضعيفةً، إذا ما قيست بـ «أمل»، وبالتكوينات الطائفية الصاعدة...

- يا عزيزتي، منذ بداية الحرب، على الذين ينتمون إلى طائفة مختلفة أو تنظيم معادٍ أن يتركوا منازلهم وأن يسكنوا في المناطق التي يسكنها أبناء طائفتهم... كيف نسيت أنّ البَيروتَين؛ الشرقية والغربية، المسيحية والإسلامية، قد تبادلتا السكان... ألا ترين أنّ هنا الأكثرية المسلمة، مع قليل من المسيحيين التقدميين، وأنّ هناك الأكثرية المسيحية..؟

كانت هذه مشاهداتي من الحرب. أعرف ذلك... لكن الآن، ننتقل إلى مرحلة مختلفة، أدركها من خلال تجربتي الخاصة المباشرة. بعد الصراع المسيحي - الإسلامي، يلتمع في الأفق صراع سنّي - شيعي، أُولى بوادره «تنظيف مناطق الأكثرية»، واحدة منها هي ساحل المتن الجنوبي، ليصبح ما سوف يُعرف لاحقًا بـ «الضاحية الجنوبية»، الحاملة دلالات جديدةً. كان «ساحل المتن الجنوبي» مُكوَّنًا من قرًى مسيحية تحيط أحياءً شيعيةً من أهل المنطقة. في بداية الحرب، هُجِّر المسيحيون أصحاب الأراضي القروية الزراعية إلى مناطق مسيحية. وبقيت فيها «جيوب» من الطوائف الأخرى، بدأت بوادر تصفيتها مع تهجيرنا من منزلنا. ربما كنّا الطليعة.. ربما سبقنا إلى هذا المصير أفراد آخرون لا نعرف شيئًا عنهم حتى الآن، لكنّ الواضح أنّ التحوّل من «ساحل» إلى «ضاحية» بدأت ترتسم ملامحه، بين أقليات مبعثرة، وبين أكثرية شيعية، تضخّ إزاءها منظمة «أمل» طاقتها الشبابية كلّها، قبل أن يأتي «حزب الله» ويتربع على عرشها.

تأتينا النجدة من شقيق زوجي المهاجر الذي يعيرنا بيته الخالي من الأثاث، في برج أبي حيدر، في الطابق الأخير من بناية، نصفها مكشوف على الجهة الشرقية. إنّها شقة غير آمنة في هذه المرحلة من الحرب؛ إذ يمكن أن يأتي القصف من هذه الجهة، والرصاص من الجهة الغربية. كنت أسكن في هذه الشقة، منذ كانون الأول/ديسمبر 1984 حتى أيلول/سبتمبر 1985 في أوقات الهُدَن؛ عند الإعلان عن وقفٍ لإطلاق النار، وأغادرها بسرعة إلى بيت أهلي القريب، عندما تشتعل إحدى الجبهات بالقصف أو الرصاص المتبادل، سواء أكانت شرقيةً - غربيةً، أم «داخليةً» بين الأحزاب الوطنية.

ميشيل سورا (1985)

ميشيل سورا باحث فرنسي في العلوم السياسية. وُلد في تونس. يتقن العربية باللهجة السورية. متزوج بسورية حلبية. يعشق كلّ ما هو عربي... يعيش كل ما هو شرق أوسطي. يسكن في بيروت الغربية في حيّ الظريف. ميشيل سورا هو أستاذي غير الرسمي في أطروحة الدكتوراه التي أحضّرها مع أستاذ آخر في فرنسا؛ هو «المشرف» المعتمد رسميًا لدى الجهات الإدارية الفرنسية. وبما أنّ تخصّص ميشيل سورا قريب من موضوع أطروحتي المتمثّل في الحركات الإسلامية، وأنّه في سورية حينًا، وفي لبنان حينًا آخر حيث أكون أنا، فإنّ صديقي سامي، الأستاذ في الجامعة اللبنانية، يعرّفني إليه. ويكون هذا التعارف خير مُعينٍ لي. فميشيل يعلمني كلّ شيء تقريبًا: نذهب معًا إلى طرابلس، الشمال اللبناني، بسيارتي في معظم الأحيان. «يغطي بعضنا الآخر على الطريق»، كما يقول. يصمت تمامًا عند الحواجز «الوطنية الإسلامية»، على مخارج بيروت الغربية ومداخل طرابلس، أو العكس رجوعًا؛ وأتكلم أنا، وأتقصّد أن تكون عربيتي قريبةً من الفصحى.

أمّا في الحواجز اليمينية، على طريق الشمال، خصوصًا حاجز البربارة الفظيع، المعروف بخطفه ذوي الهويات المعادية، فتنقلب الأدوار: أترك ميشيل يتكلم بلغة فرنسية باهرة ذات لهجة

باريسية راقية؛ يسأل رجال الحاجز عن باقي الطريق، ويقول أيّ شيء لإبهارهم، وهم يتلعثمون. يريدون أن يدرّبوا «فرنسيتهم» على الحاجز، فيشرعون في النطق بتلك الجمل الفرنسية الجاهزة «موسيو»، «مدام»، «سيل فو بلي»، «مرسي»، «أورفوار». جمل متقطعة لا يقدرون على إنهائها لكنهم مصرون على النطق بها، من باب رفع «منسوب النّدية» مع ذاك الفرنسي صاحب البشرة النقية والعيون الزرقاء والأناقة الطبيعية، غير المدروسة.

بعد كلّ حاجز نتنفس الصعداء، كأنّنا فارّان من العدالة. ثمّ نمضي في مشوارنا البحثي الميداني نحو «باب التبانة»، معقل أهمّ شخصية، خليل عكاوي، الزعيم الشعبي المحبوب ذي الأصول الفلسطينية، الماركسية، بل الماوية، وقد تأثّر بالثورة الإسلامية في إيران، فاعتنق الأيديولوجيا الإسلامية التي رآها أنّها صاحبة القدرة الأقوى على مجابهة الإمبريالية والصهيونية. خليل عكاوي هو رئيس «المقاومة الشعبية»، وهو ينسق مع الشيخ سعيد شعبان لتأسيس تنظيم واحد هو «حركة التوحيد الإسلامي» مع «حركة لبنان العربي» و«جند الشام». هذه أول مقابلة بين خليل عكاوي وميشيل سورا أحضرها. كنت مراقِبةً لها فحسب؛ هذا نوع من أنواع التدريب على العمل البحثي، أما المراقبة الميدانية فهي فرع آخر بعد المقابلة.

نخرج من منزل خليل عكاوي لنجول في باب التبانة، ونتكلم مع أهله ونلحظ محالّهم وملامحهم، ونسألهم عن أشياء يبدو لنا أنّها تهمّهم. ليس هذا فحسب؛ بل إنّ ميشيل يطلعني على كتاباته المنشورة في مجلات أكاديمية متخصّصة، وهي تتناول «الإخوان المسلمين» السوريين، بصفتهم معارضين للنظام السوري. أقرأ للمرة الأولى برامج «فصائلهم المقاتلة» التي لا تختلف عن أيّ

برنامج يساري معارض إلا بالمرجعية الدينية. كلّ شيء موجود فيها، من الطبقات إلى الحريات.

في مرحلة لاحقة، كنت كلّما كتبتُ فصلًا عن باب التبانة وخليل عكاوي، طلبت من ميشيل أن يقرَأه ويزوّدني بملاحظاته. فيردّه بعد أيام قليلة، وعليه تساؤلاته عن المقاطع التي يصفها بأنها «شديدة الانحدار». ويطلب منّي أن «أدوّرها»، و«أُسلسها»، و«أوضّحها»، ثمّ يقترح تعديلًا في شأن صياغة هذه الفكرة أو تلك؛ لتصحيح بعض المعلومات غير الدقيقة، أو للعودة إلى مراجع أو فصول من كتب تخفّف من تذبذبي، أو عدم فهمي، أو رفضي الأيديولوجي لهذه الفكرة أو تلك التوجهات. ميشيل سورا أستاذي الفعلي، معه أفهم المغزى العملي لأثر الأيديولوجيا التي يعتنقها الباحث في أعماله، وأستوعب معنى الجهد الحقيقي الذي يجب أن يبذله الباحث بطريقة متواصلة لتجاوز أيديولوجيته، حتى لو كان يدّعي أنّه تخلّص منها، مثلما أدّعي أنا ذلك بعد ما تركت «منظمة العمل الشيوعي».

يحصل هذا كلّه في خلال عام 1983، بعد الاجتياح الإسرائيلي. وفي عام 1985، في أواخر أيار/مايو، أكون قد حصلت على الدكتوراه. كنت أدرس في الجامعة، وأنا حامل في شهري الرابع، وكنت أعمل في «معهد الإنماء العربي»، أسمع خبر اختطاف ميشيل سورا على طريق المطار فيما كان عائدًا من المغرب مع صحافي فرنسي اسمه جان بول كوفمان. أهرع إلى منزل ميشيل، وألتقي ماري زوجته. لا تعرف شيئًا... ليس في ذهنها «مرجع»، كما تقول، إلا الأفلام السينمائية التي يخطفون فيها ضحيةً ويطلبون فديةً مقابل إطلاق سراحه. أليس كذلك؟ أم أنهم سوف يطلقون سراحه؛ لأنهم في الحقيقة يريدون الصحافي ذا الاسم اليهودي، ولا يريدون

ميشيل، خصوصًا أنّه باحث مغمور مسالم يحب العرب ويتكلم العربية..؟ كثيرون هم الناس حول ماري، والأصدقاء الذين يودون المساعدة، لكن كيف؟ أقوم بمسعاي وحدي.

أتصل بالشيوخ الذين عرفتهم خلال إعدادي أطروحتي، فيحيلونني إلى شيخ ذي شأن من الطائفة الشيعية يُعدّ مرشدًا روحيًا لـ «حزب الله». أكاد أبلغ الأروقة التي توصلني إلى هذا الشيخ، فلم أفلح. ثم أعود إلى ماري لأسأل عن التطورات. يبدو أنّها وجدت «خيطًا»، وتعمل بحسب هذا الخيط بثقة وجديّة. ثم أعود إلى نفسي. لا أستطيع أن أركض في الفراغ... لكنّ «المعلومات» التي صارت رسميةً الآن تفيد بأنّ المجموعة التي خطفت ميشيل سورا ورفيقه اسمها «منظمة الجهاد الإسلامي»، وهي واجهة لمجموعات تابعة لسورية. بعد هذه المعلومات، لا بدّ من التشاؤم. فإذا اكتشفت الاستخبارات المشرفة على الخطف أنها اصطادت أكثر من فريسة واحدة، أكثر من صحافي ذي أصل يهودي... إذا اكتشفت أنّ ميشيل سورا باحث في الحركة الإسلامية، في «الإخوان المسلمين» الذين أشعلوا منذ عامين انتفاضةً مسلحة في وجه النظام، والذين كان ينظر إليهم بعين باحث لا يميز بين برنامجهم وبرنامج أيّ مجموعة سياسية يسارية معارضة... فإنّ مصيره حينئذٍ لن يكون ورديًّا، ولن يكون - على الأرجح - نحو الحرية. هكذا ألوذ بنفسي... أعلم من ماري أنّ ميشيل اقتاده، في إحدى الليالي، رجلان مسلّحان لم يُخفيا وجهيهما إلى زيارةٍ لبيته بمناسبة عيد ميلاد ابنته لاتيسيا.

يمرّ آذار/مارس 1986. في المكتب، مع الزملاء. في الصفحة الأولى من الجريدة صورة ميشيل سورا في تابوت، والإعلان عن وفاته. الصورة فيها إخراج من أعلى الدرجات. تخيّل أنتَ، بعد

وفاته، كيف ألبسوه الثياب المرتّبة، وكيف أوصوا بتابوت على مقاسه، وكيف وضعوه وضمّوا يديه إلى بعضهما. أمّا كيف توفي، فنعلم بعد حين أنّ ميشيل كان يعاني، وهو في الأسر، سرطان الكبد، وأنّهم تركوه يموت من دون أيّ علاج. هكذا تتوه ماري، هي وكبيرتها وصغيرتها، وننسى نحن، ونسير إلى نهاية الحرب الأهلية وأهوالها. نعلم أنّ ميشيل رحل من هذه الدنيا، لكننا لا نملك غير صورته وهو في التابوت. قد يكون ذلك مفيدًا لمن يريد أن يتخيل دائمًا أنّ الأمر كلّه لا يعدو أن يكون «تمثيلية» موت، وأننا قد نجد يومًا ما ميشيل؛ على غرار أمهات المخطوفين اللواتي لن يصدّقن، يومًا، أنّ فلذات أكبادهن قد رحلوا... ما دمن يتحسسن أجسادهم - حتى لو كانت ميتة، ولم يتمّ دفنهم.

(في خريف 2005، يعلن «حزب الله» أنّ جثة ميشيل سورا موجودة في ورشة عمار في برج البراجنة، في الضاحية الجنوبية من بيروت. تُنتَشل الجثة، ويجري فحص الحمض النووي («دي أن آي»)، ويتمّ التأكّد من هوية صاحبها، لتُنقل بعد ذلك إلى باريس حيث تتمّ مراسم دفن رسمية. هكذا، تبكل دائرة القدر مع ميشيل سورا، وتنتهي حياة أحد عشّاق الشرق، على يد مجموعة من أبنائه).

خطف ابني همام (1987)

في خريف عام 1987، يقوم ابني همام برحلة سياحية إلى موسكو. عمره خمس عشرة سنةً، وهو يحلم، منذ زمن، بالسفر بمفرده، وهذا أمرٌ طبيعي في مثل هذا العمر. يريد أن يكون مع أصحابه، أن يكون مستقلًا على طريقته. في أثناء عودته، وبعد أن يسلّمنا هداياه، يروي لنا أشياء طريفة عن العاصمة السوفياتية، عن المسافات، وعن المباني والأنهر. يأتي بصور الرحلة، فيدلّني على الشباب الذين شاركوه في الرحلة: «هذا حسام، وهذا أخوه عدنان، أكبر منّي قليلًا»، و«هذا سامر، ابن عمتهما، مهذب ومنطوٍ، لم يتفوّه بكلمة واحدة في أثناء الرحلة كلّها»، و«هذا حسن، الأفقر بيننا. انظري إلى عينيه... أشفقتُ عليه، أعطيته خمسين دولارًا، وكذلك جزمتي الشتوية». كيف تعطيه ذلك كلّه؟ أسأله: هل جُننت؟ هل نملك نحن هذا المال كلّه لتتصرف كالأمير مع شاب لا يبدو عليه الفقر؛ ما دام أهله قادرين على دفع تكاليف الرحلة السياحية إلى موسكو؟ يجيبني بأنّ مشاعر التعاطف طغَت في هذه الرحلة:

- شعرت بأنني أفضل منه حالًا، خصوصًا أنّ والدي يعمل في الكويت، في حين أنّ والده يعمل في الحقل في البقاع، وهو لا يكاد يجني ما يحتاجون إليه. ربما يعيشون ممّا يرسله له أخوه المغترب.

يخرج همام بعد يومين، في أثناء غيابي عن البيت. لا أعرف تحديدًا وجهته. لم يترك لي رسالةً، وأرجِّح أنّه ذهب لزيارة صديقته في منطقة الرملة البيضاء. يأتي الليل، ولا يعود همام. ثمّ تمرّ ساعات، ولا يعود، فيكون القلق الشديد. سمعتُ في عصر ذاك اليوم أنّ أحدًا رمى قنبلة على حاجز للجيش السوري بالقرب من منطقة الكولا، وأنّ عناصر الجيش السوري قامت بتطويق المنطقة هناك، واعتقال جميع الشباب الموجودين فيها، وزجّهم في سجن فندق «البوريفاج» للتحقيق. تراود هذه الحادثة ذهني كلما أقلق . أتصل بأصدقائي الصحافيين لمعرفة أسماء المقبوض عليهم، أو لسؤال المخافر والمستشفيات عن شاب يحمل اسم ابني. والجواب «كلّا». يمضي جزء من الليل، فتعود الشكوك: ربما قبضوا عليه، ولم يعلنوا ذلك. ثم أتصل بأحد أقربائي، فضل، في الثانية بعد منتصف الليل. هو على صلة وثيقة بالسلطات السورية، ويمكنه أن يعرف إن كان ابني من بين المعتقلين السرّيين للقوات السورية. والجواب «كلّا» أيضًا. أين هو إذًا؟

في الصباح الباكر، يحضر والدي حاملًا معه مغلفًا سميكًا سلّمه إيّاه شاب، اختفى مثل الريح. يقول أبي إنّ اسمي مكتوب على المغلف، وهو موجَّه إليّ شخصيًا، وإنّه لم يفتحه. أتفحص المغلف قبل فتحه؛ أقرأ اسمي فعلًا على صدره، مع توقيع «منظمة الرأي الانتحاري»، وفي قفاه دليل على النيّات متمثّل في رسم جمجمة. أفهم لماذا لم يشأ أبي أن يفتحه. فضّلَ أن تكون مفاجآته في حضوري وحضور إخوتي. أفتح المغلف إذًا، وأجد في داخله رسالةً وشريط كاسيت. تقول الرسالة: نحن منظمة الرأي الانتحاري، خطفنا ابنك. لا حاجة إلى إخبار مخفر الشرطة عن الخطف. وبحسب ما ورد

في الرسالة، فإنّ ابني لن يُفرَج عنه إلّا إذا دفعنا للخاطفين 88 ألف دولار.

كان شريط الكاسيت بصوت ابني، وهو يردّد الكلام عينه مرتجفًا، ويرجوني أن أعمل المستحيل من أجل إنقاذه، وإلّا قتلوه. تنقلب الدنيا من أساسها في البيت، وتبدأ الشغالة السريلانكية بملاحظة الأمر غير الاعتيادي الحاصل هنا. ثم تسألني عن الخطب، فأجيبها، وأشرح لها قليلًا مضمون الرسالة. تقول إنّها تعرف الخاطف، وإنّ عليها أن تتكلم الآن. ماذا تريدين القول يا بريانكا، قولي، عجّلي، ماذا تعرفين؟

تقول بريانكا: أراني همام صور موسكو، وكلّمني في شأن الشباب الذين في الصورة. أتى أحدهم البارحة بعد الظهر وخرج مع همام الذي قال إنّه ذاهب مع صاحبه إلى الضاحية الجنوبية، ليرى معه صورًا جديدةً لرحلة موسكو. تتابع بريانكا قائلةً: طلب منّي همام ألّا أُفصح عن مكان توجّهه؛ فهو يعرف أنّ أمّه أصبحت لا تستسيغ ذهابه إلى الضاحية الجنوبية بعد حادثة التهجير. تأتي بريانكا بالصور، وتقول مشيرةً بإصبعها «همام خرج مع هذا الشاب». كان ذلك الشاب هو حسن البقاعي الذي أعطاه ابني خمسين دولارًا و«جزمةً» شتويةً.

من هذه النقطة يصبح الشك يقينًا. ابني خُطف على يد حسن. ويجب أن نعرف من يكون حسن. من هم أهله؟ أين يسكن؟ ينقسم العمل «أوتوماتيكيًا»: أخي يذهب إلى البقاع، وأختي إلى الضاحية، وكلاهما يقوم بمهمة التحقق من هوية حسن. وأنا أتوجه إلى قريبي فضل الذي يتولى إدارة مؤسسة إعادة إعمار، وأجلب إليه الرسالة

وشريط الكاسيت، لعلّه يمكنه، من خلال علاقاته المتشعّبة، أن يكشف عن الخاطفين.

بعد ذلك، أعود إلى البيت، وأبقى على اتصال بالجميع. البيت يمتلئ بالناس. زملاء، أصدقاء، أقارب، جيران، أهل. لا يبقى أحدٌ إلا ويريد أن يستفسر ويتعاطف. الخوف يسري في الهواء ناعمًا متذبذبًا. والكلام على موجة الخطف الجديدة لا ينتهي. فالآن، أصبحوا لا يخطفون «على الهوية»، كما كان الشأن في بداية الحرب؛ ذلك أنّ المناطق «نُظّفت» من أقلياتها، والجيوب فرغت من أموالها، أو أنّ المموّلين ضجروا، أو أنّ الأموال راحت إلى غير مقصدها الحربي النضالي «النبيل». والمسلحون يبحثون، الآن، عن موارد. يريدون أن يعيشوا كما يعيش مسؤولوهم. حالة من الركود المالي تفرض اختراع طرائق جديدة للاغتناء، فيكون خطف أبناء الأثرياء هو «اللقية»؛ يُخطف ابن ثري أو ابنته، وتجري المطالبة بفدية. ثمّ يعود المخطوف إلى أهله بعد أن يكون هؤلاء قد دفعوا مبلغًا معيّنًا. هكذا خطفوا ابن بلعة، وحفيدة عطا الله فريج، وكلاهما قد ورث ثروات كبيرةً. أقول، ومن أين تصوروا أنّني ثرية، وأنني أملك فائضًا يبلغ 88 ألف دولار أدفعه فديةً؟ كيف تخّيلوا ذلك؟ فيكون جواب يوسف، أحد زملائي في الكلية، أنّ في الأمر منطقًا، وأنّني أنا التي روّجتُ عن نفسي سمعة الغِنى. ثمّ يسكت. كيف؟ تابع! أُلحّ عليه ليُفهمني كيف أصبحتُ ثريةً في غفلة من أمري.

- تذكرين عندما أرسل إلينا الرئيس الليبي، معمر القذافي، «تبرعاتٍ» من «أشوال» الأرز، ومن الأحذية، بعدما انخفضت رواتبنا، نتيجة انخفاض قيمة الليرة اللبنانية؟

- نعم أذكر...

- حينها، كنتِ أنت الوحيدة التي رفضت المساعدة، وقلتِ للمدير إنّك لا تحتاجين إلى المساعدة، وإنّ غيرك أولى بها منك.

- حقًّا! هذا ما حصل. لكن هل تُبنى على هذا الرفض صورة الثراء؟

يجيب «طبعًا»، ويتابع:

- أنت أيضًا تعملين في معهد أبحاث عربي تموّله ليبيا، و«تقبضين بالدولار»، فضلًا عن أنّك تعلّمين في الجامعة، وزوجك في الكويت، وتسكنين طلعة الحمام العسكري... هذه «التوليفة» كلّها، إضافةً إلى أنّ ابنك أوحى هو نفسه بهذا الغنى عندما أعطى الشابَ الذي سيكون خاطفه خمسين دولارًا وجزمةً شتويةً!

وحدها الشرطة التي أبلغتها بعملية الخطف، بنصيحة من يوسف، «كي تسجلي حقّك. مع الدولة، لا يضيع الحق. احسبي حساب نهاية الحرب. لن تخسري شيئًا على كلّ حال»... وحدها الشرطة، أو رجالها، تفاجئهم «الحالة». يصرخ أحدهم بعفوية ذكية:

- لكن هذا الأثاث ليس أثاث أثرياء..! هل أنتم فعلًا أغنياء حتى يُخطف ابنك مقابل فدية مالية لإطلاق سراحه؟ هل لديك حساب في البنك؟

أمضي ثلاث ليالٍ على هذا النحو. أدخن السجائر، أشرب القهوة، ولا أنام. أتابع الاتصالات، أخرج.. أعود.. والبيت يضجّ بالناس، بالآراء، بتقديم المساعدة، بالنصيحة، بالتعاطف،

بالتعليق... كلّهم هنا. كأنهم بذلك يحتمون ببعضهم، يتآزرون، يحاولون أن يفهموا شيئًا. الحرب لم تنتهِ. وأمراء الحرب الصغار، أو المتوسطون، هم الذين يصنعون الحدث. ربما الأمراء الكبار أعطوا أولئك الأمراء الصغار هذه الحرية، منحةً منهم، أو تعويضًا مقابل حرمانهم من أموال ابتلعها أولئك الكبار. من يدري؟

خطف ابني همام (1987)
(تتمة)

في الليلة الثالثة، يصل إسماعيل من الكويت، ومن بعده همام برِفقة قريبنا فضل. «حُرّر» همام في وقت قياسي، من دون أضرار بالغة، خلافًا لما حصل لأبناء بلعة وفريج. ما زال البيت يغصّ بالزوار. وفضل ينفرد بي وبإسماعيل، ليروي لنا كلّ ما حصل، بترتيب، وبمنطقٍ، بعد أن كنت قد تلقيت نُتفًا من إخوتي عن شخصية الخاطف وعائلته. يروي فضل قائلًا:

- الذي خطف ابنك هو من «قلب البيت»، له قريبان يعملان في شركتنا. استدعيت الشخصين إلى مكتبي، وبعد التأكد من أنّ الأول هو ابن عمّ حسن، والثاني شقيقه، هددتهما بوضوح: إمّا أن يُطلق سراح الصبي، أو أصرفكما من العمل. اذهبا إلى الضاحية وقولا للخطافين إنني أنتظر الصبي. كنت واثقًا بخطوتي. فهذان الشابّان «يقبض» كلّ منهما راتبًا جيدًا، وهما فقيران، ولا يمكنهما الاستغناء عن لقمة عيشهما. لكنني اتّخذت إجراءً احتياطيًا أيضًا، واتصلت بمسؤولي القوات السورية. رويت لهم عملية الخطف. وبما أنّ السوريين لهم كلمتهم وسط القوى المسيطرة على الضاحية، فسوف يكون لوقوفهم إلى جانبي أثرٌ في قرار الخاطفين. واليوم عصرًا اتصل بي شقيق حسن وطلب منّي أن أكون على طريق المطار في

مدخل الضاحية الغربي الشمالي. لم أذهب إلى هناك بسيارتي، بل داخل «ملالة» يقودها جندي سوري، ومعه آخرون، في مقدمهم ضابط عالي الرتبة. انتظرناهم هناك تحت الشجرة الضخمة. لم يمضِ ربع ساعة، أو أقلّ، حتى حضر همام. والآن ها هو هنا، من دون أيّ خدش...

أتوجّه إلى فضل بالشكر بصوتٍ تعبٍ لا يكاد يخرج من حنجرتي. التدخين طوال هذه الأيام الثلاثة، والقهوة المتواصلة حوّلَا كلامي إلى ما يشبه الأنين، مع أنّني لم أبكِ إطلاقًا. لم أملك ترف البكاء. كنت وحدي. فلا والده، أو أعمامه هنا في لبنان. لم يكن معي إلّا أخي وأختي. أمّا والداي، فلا يكادان يتحملان ظلهما منذ اللحظة الأولى لاختطاف ابني. كنتُ قد تعلمتُ، بعد خطف إسماعيل وميشيل سورا، أنّ السلاح الشخصي الوحيد الذي أملكه هو عقلي، وأنّني أكون أكثر استفادةً في مسعاي بقدر ما أُعمل ذلك العقل. ويتطلّب هذا الأمر أن أؤجِّل مشاعري إلى ما بعد النهاية، على الرغم من أنّ النهاية، في أثناء الخطف، كانت تبدو لي كلّ مرة مثل سرابٍ أبديّ. خطف ابني ليس كخطف زوجي أو صديقي. إنّه أصعب منهما. لكنني وحدي، ولا أستطيع أن أسمح لنفسي بأيّ قدر من العواطف. الآن يجب أن تنام هذه العواطف. فلا دمعةَ ولا تنهيدةَ، ولا أيّ نوع من الـ «نّق»، بل دوران حول حقيقة الخاطفين وكيفية الضغط عليهم.

عندما يدخل الشرطي ليسجّل محضر الخطف، يسألني «أين أمّ المخطوف؟». أجيبه «أنا». «لا لست أنتِ!». لا يصدق أنني والدة المخطوف. «أين أمّه؟ هيا، دُلّيني على أمّه!». أجيبه بأنني لا «ألعب معه». وهل يمكن اللعب في مثل هذا الموضوع؟ يقتنع أخيرًا.

أطرح أنا عليه السؤال «لماذا لم تصدّق أنّني أمه؟». فيكون جوابه أنّ أمّ المخطوف يجب، على الأقلّ، أن تكون باكيةً بكاءً متواصلًا، وأن يكون وجهها قد تمزّق ألمًا، وألّا تكون مدركةً ما حولها. أمّا أنت فلست كذلك! إنّك تبدين مثل المحقق المتجهّم، البارد الأعصاب... أجيبه: حقًّا؛ ذلك لأنني وحدي. وربما لو كنتُ محاطةً بعشيرة تشتغل تلقائيًا لإخراج ابني من الخطف، لكنت الآن أصفع وجهي وألطمه وأصرخ... وقد أُجنّ أيضًا.

أمّا همام، فلَه «المقلب» الآخر من عملية الخطف؛ إذ يروي تفصيلاتها قائلًا:

- جاء حسن إلى هنا، كان لطيفًا جدًّا. دعاني إلى منزله في الضاحية. أعلم أنّكِ حَرّمت عليّ الذهاب إلى هناك بعد تهجيرنا. لكنني ذهبتُ. كان الإغراء قويًّا. قال حسن إنّه التقط صورًا جميلةً من موسكو، أجمل من تلك التي كانت معي. خرجتُ معه، ركبتُ سيارته الـ «بي إم دبليو»، وتوجهنا صوب الضاحية. عندما وصل إلى هناك، شعرتُ بأنّه بدأ يتوتر. سألته: ما بكَ؟ لا شيء... لا شيء... يجيبني باضطراب متصاعد، ما أدى إلى اصطدام طرف سيارته بسور فاجأه... كأنه خارج عن نطاق السير... وهو لم يرَه. نصل إلى حيّ «صفير»، وبناية تبدو هزيلةً ذات ثلاثة طوابق. يقول، وفي صوته رجفة: «وصلنا». نصعد نحن الاثنين، لنصل إلى الطابق الثالث، وندقّ الجرس، يستقبلنا رجلان أحدهما شابّ، والآخر أكبر منه سنًّا. يمسكان بيديّ بخشونة تفاجئني. ماذا يجري هنا؟ يجيبني الأكبر سنًّا: لا شيء. نحن نحتجزك هنا حتى يدفع أهلك مبلغًا نطالبهم به. تدور الدنيا في رأسي، لا أفهم شيئًا... أجد أنّني بعد ذلك قد دُفعت دفعًا نحو غرفة منزوية في

الشقة، لا نافذة فيها ولا هواء. ماذا يدبّرون في الخارج؟ ماذا يفعلون؟ ماذا يقصدون؟ تدور الأسئلة في رأسي.. تُفْلِت من رأسي، من دون نتيجة. أسمعهم يصلّون، يتشاورون، يتحركون. أدقّ البابَ، أريد العودة إلى بيتي... ليتني لم أردّ على حسن. ثم يفتح الباب أكبرهم سنًّا. «ماذا تريد؟!»، يصفعني. «لا أريد أن أبكي. أريد طعامًا الآن».

يجلبون إليّ قطعة خبز مع صحن «لبنة». هذا ما وجدوه في الشقة. أنام في الليلة الأولى من شدّة التعب... لا أشعر بأنّني نمت. كنت مضطربًا حتى في نومي، وكان البرد يلازمني. في الفجر، أسمعهم يتوضّأون للصلاة. أدقّ البابَ، أريد الدخول إلى الحمّام. الشقة خارج «غرفتي» متسخة، مملوءة دخان سجائر. يقول لي كبيرهم إنّ لديهم شيئًا يريدون أن يفاجئوا به أهلي. أسألهم: ما هو؟ يجيب أنهم كتبوا رسالةً، وأنّهم يريدون منّي أن أقرأها، ليرسلوها إليكِ - يا أمّي - عن طريق جدي، وقد كانت الرسالة هي الشريط الذي سمعتِه. بعدها أخذوا عنوان جدّي، ثمّ أرجعوني إلى «غرفتي». أقضي النهار الثاني في انتظار وخوف. كانت ثمّة جلبةٌ دائمة في الخارج لا أفهم منها شيئًا.

في اليوم الثالث، يأتي رجلان، أحدهما عسكري سوري، يقول لي: عمّك فضل ينتظرك هناك.. تحت الشجرة. لا أثق بهم جميعًا؛ فالخاطفون يسلّمونني لذلك الرجل من دون «أخذ وردّ»؛ من دون جدل. في هذه اللحظات التي أقتربُ فيها من الحرية تحديدًا، أشعر بخوف أكبر. أن أُخطف، هذا شيء مخيف... أمّا أن يسلّمني الخاطفون إلى غريبَين يزعمان أنّهما سيسلّمانني إلى عمّي، فهذا ما يجعلني أكثر خوفًا. بين حيّ «صفير» ومدخل الضاحية، تحت

الشجرة، تبدو الدقائق طويلةً... طويلةً... وها أنا اليوم معكِ. «كان كابوسًا، وانتهى». أغمره، أضعه في قلبي.

لم أتوقع، إطلاقًا، أن تأتيني في اليوم التالي رسالة من الخاطفين يطالبونني فيها بتكاليف عملية الخطف التي تبلغ ألفي دولار؛ فهما لم ينالا دولارًا واحدًا، من الـ 88 ألف دولار التي طالبوا بها، نتيجة الضغوط التي مورست عليهم. لذلك، يريدون تعويضًا، أو «مكافأة نهاية العملية»... لا فرق. الوسيط الذي يأتي بالرسالة، يجيب عن سؤالنا عن تلك التكاليف، بأنّ السيارة التي كانت تنقل ابني المخطوف اصطدمت بسور، وأنّ جانبها الأيمن كلّه بات في حاجة إلى «حدادة» و«بويا». أسأل الوسيط: وماذا لو لم ندفع؟ فيجيب: ربما يعيدون عملية الخطف. أقول له: لكنّنا محميون، ثمّ إنّه لا بدّ من أنكم استنتجتم أننا لسنا من «قماشة» دافعي الفدية؛ لأننا ببساطة لا نملك هذه المبالغ كلّها. لا يجيب الوسيط. لكننا نفهم من خلال اتصالاتنا بحُماتنا أنّه من الأفضل لنا أن نترك البلاد الآن، بعد أن «احمرَّت العين» علينا.

في هذه اللحظة تحديدًا، أقرّر الخروج من لبنان، حمايةً لعائلتي، لابني وابنتي. نرحل إلى الكويت حيث يعمل إسماعيل، ونبقى فيها حتى الثاني من آب/أغسطس 1990، عندما يجتاح صدام حسين الكويت، في حرب أخرى، سوف تولّد مزيدًا من الحروب. نعود إلى لبنان عشية إقرار اتفاقية الطائف التي تُنهي الحرب الأهلية رسميًا، لتبدأ مرحلة جديدة من حياتنا.

الأمومة في الحرب

عندما اندلعت الحرب، كان عمر ابني همام ثلاث سنوات. لا أتخيل في البداية خطورة الحرب على الأطفال. أحمله معي إلى مركز الشياح - عين الرمانة، وأجلب معي «غياراته» و«فرشته» وجميع مستلزمات العيش في المركز. هو سعيد بأجواء المركز، خارج عن نطاق الروتين العائلي؛ يدلِّـلُه الجميع، يسمع الأغاني، يحضر الندوات والاحتفالات، كأنه كبُر فجأةً وأصبح جزءًا من المنظومة المقيمة في المركز. لكن، إذا بالقمل ينتشر في شعره مرتين، فأجلب له السوائل اللازمة لمحاربته. ينال القمل من شعري ومن شعره. أهزأ من مِثل هذا الخطر، من دون توقعٍ لِما هو أفظع من القمل. وحتى من حادثة الاعتداء الكتائبي المزعوم، لا ألمس خطرًا عليه. لكن بعد ذلك، أغوص في نوع من الوسواس سوف يلازمني حتى الآن؛ أي بعد مرور ستٍّ وعشرين سنةً على النهاية الرسمية للحرب.

في البداية، يتسلل القلق إليّ مثل خيوط عنكبوت دقيقة، غير مرئية. لا أريد الاعتراف به، وإلّا يكون عليّ الانسحاب من المركز أولًا، وحمْل ابني إلى مكان آخر من الكوكب. لكنني لا أفعل. ما زلت ملتزمةً في تلك السنوات الأولى بالعمل الحزبي، وعليّ تنفيذ المهمات الموكلة إليّ. تمتزج الدرجة الأولى لهذا القلق بنوع من الطيش الشبابي أيضًا. أقول إنّني قلقة، وأعيش القلق بحذافيره، كما

أتصوره، لكنّ هذا التصور - على الرغم من الكلام الذي يحرّكه - لا يذهب بعيدًا في المخيلة. المخاوف التي تتبلور شيئًا فشيئًا مع توالي سنوات الحرب، تضخّ عليّ صورًا أكثر دقةً عن موضوع قلقي. ثمّ إنّني أتصور ابني قد جُرح جُرحًا طفيفًا يمكن مداواته بسرعة. في أواسط زمن القلق، ومع ظهور السيارات المفخّخة خصوصًا، تتغذّى مخيلتي بصور الإعاقات الجسدية التي يمكن أن تنجم عن الحرب. وفي جميع حالات هذا القلق - وأنا أراها الآن متفاوتةً - أقع في نوع من الجنون يجعلني أخرج من عقلي، ومن ميزان تصرفاتي، فأركض مسافات طويلةً، مثل المسافة الواقعة بين حارة حريك وخلدة؛ أي ما يساوي خمسة أو سبعة كيلومترات تقريبًا، أركض بثياب «العري»، بـ «البابوج»؛ لأنّني سمعت من الراديو أنّ القذائف انهمرت على طريق عودته من المدرسة. أو أخرج في الليل، تحت القصف، من بيتنا الآخر في الحمام العسكري، إلى مسبح «السبورتينغ»؛ حيث يتدرّب ابني على الغطس، لـ «أسحبه»، وقد كان مراهقًا يافعًا مُحبًّا للرياضة، حتى أخفيه عن مسار القذائف، وأغطّيه في حضني، كأنني بذلك أنقذه من مخاطر البقاء في لبنان. فالنقاش بين البقاء والرحيل لا يفارقني طوال الحرب. والحجة «الحربية» لا تضيع: ابني، وابنتي التي ولدت في عام 1985، والتي أمضت الأيام الأربعين الأولى من حياتها بين المنزل والملجأ حيث تدور اشتباكات بين الفصائل المتحالفة، وحيث كانت القوات السورية تحاول الدخول إلى بيروت الغربية لفرض هيمنتها التامة على أزقتها.

في أثناء القلق على ابني، وبعد ذلك على أخته أيضًا، أنسى نفسي. تنقلب شخصيتي من القوة والتكيف وسرعة الحركة إلى تشنّج وألم في البطن يشبه التمزق الحادّ، مع قدرة ذهنية عالية على

استحضار المصائب الممكنة كلّها. تتجمّد الحياة ومجرياتها كلّها، ولا أرى شيئًا، إلّا ما يشغل بالي. يسيطر الوسواس عليّ، فأبحث في الإشارات القليلة، الحسّية والغيبيّة، عن دليل على أنّ ابني، ومن بعده ابنتي، بخير، وأنّ كلًّا منهما لم يصبه مكروه، وأنهما عالقان فحسب، غير قادرين على الاتصال أو التنقّل، وسوف يكونان بعد دقائق في طريقهما إلى البيت.

في لحظات الانتظار الطويلة، لا أرى شيئًا، ولا أشعر بأنني كيان قائم، بل أضمحلّ، أذوب، أنصهر بنار القلق حتى يتحوّل عقلي، أو ذهني، أو نخاعي - لا أعرف تمامًا - إلى بركان حممه هي جميع التخيلات السوداء عن مصير ولديّ الغائبَين. في هذه اللحظات، لا يصبح الوقت وقتًا، بل مِغزلًا لخيوط هي أسهم جارحة تفيدني بأنّ القلق الذي أعيشه مرّت عليه ساعتان ثمّ ثلاث ساعات ثمّ أربع... حتى أنفجر مرّةً أخرى... الساعة عدوّة القلق. يجب ألّا أنظر إليها، لأنّها تزيدني جنونًا. لكنني أنظر، أحدّق بها كالبلهاء، غير مصدِّقة سرعتها في التهام الدقائق والساعات. كيان بلا جسد، بلا طعام. سيجارة وقهوة فحسب. منذ أن خُطف همام، لم أتناول غيرهما؛ ثلاثة أيام من القهوة والسيجارة. راح صوتي معهما. لم يعد بوسعي أن أتكلم، أن يخرج صوتي. وفي أيام أخرى من القلق الأقلّ ثقلًا، يتحوّل وجهي، تتغير ملامحي. أصبح غريبة عن نفسي. فلا أسال عن شيء آخر، غيرَ سلامة أولادي.

في أثناء عملية خطف ابني همام - في اليوم عينه - اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى «انتفاضة الحجارة». لم أعلم بها، وأنا المتابعة الولِهة للشؤون الفلسطينية، إلّا في الكويت، بعد أن خرجتُ من لبنان. حين علمت بأنّ اندلاعها كان في اليوم نفسه الذي خُطف

فيه ابني، بتُّ أشعر بأنّ ذلك أعطاها بعدًا تراجيديًا، لم أتمكن من محوه تمامًا. فكيف يمكن فصيل مؤيد للفلسطينيين أن يخطف أطفالًا، أو صبيةً، أو بناتًا، من «المعسكر» نفسه، ومن أجل فدية مالية؟ إنها «علقة» تاريخية، سوف تتطور مع الوقت، ويكبر حجمها وفظاعتها.

لستُ الأم الوحيدة التي «جنّنها» القلق على أولادها. مدّتني الحرب بنماذج من الأمهات أكثر منّي قلقًا، أو أقلّ. كلّما رأتني صديقتي وجارتي هدى في مثل تلك الحالة من الجنون، اعتادت أن تهدّئني. هي أمّ لأربعة أولاد، وكانت تشدِّد على أنّ كلّ واحد منّا يأخذ نصيبه من هذه الحرب، وأنّه عليّ أن «أسلّم أمر ابني لله». وطبعًا، أنا الماركسية غير المؤمنة، العلمانية، أستمع إلى كلماتها في البداية بشيء من الريبة. أقول لها إنّ التسليم في هذه الحالة هو كالاستسلام للقدر. فتجيبني بذكائها المعهود، بأنّ القدر لا يحتاج إلى إيمان أو اعتقاد. إنّه القدر فحسب، أو «الساعة». تأتي في غفلة، تكون سريعةً، أو تتأخر، أو تكون في ميعادها. وأنتِ لا يمكنك أن تفعلي شيئًا إزاء القدر، مهما علا شأنك أو كانت قوّتك. تردّد قولها: «سلِّمي أمر ابنك لله»، وأنا أقاوم. لكن في النهاية «أسلّم» عندما يكون قريبًا منّي فحسب، عندما يكون في حمايتي المباشرة.

الحرب هي جرح مستمر للأمومة، هي استنزاف للأمومة؛ أن تُنجب الواحدة ولدًا على هذه الأرض، أن تربيه بـ «الشبر والنِدر»، بفائق حنانها ودهشتها، ثمّ من بعد ذلك تأتي الحرب، تلك العملية الغبية الشنيعة، فتخطفه، أو تشوّهه، أو تبتر طرفًا من أطرافه... إنّ الحرب إهانة صريحة للأمومة. وما إرغام «أم الشهيد»، بـ «القوة الناعمة» أو «العارية»، على الزغْردة يوم تشييع ولدها، إلا مزيد من

الإهانة، باسم «تطهّر» لا مكان له في قلب الأم المفجوعة، مهما تدرّجت في سلّم أمومة الشهداء. ثمّ إنّ الخروج من الحرب بأقل ما يمكن من الخسائر، بالنسبة إلى الأفراد وحدهم، لا يُعفي الحرب من دَينها الكبير تجاه الأمهات الناجيات. أقلّ ما يمكن أن تفعله ذاكرتنا المنسية، الآن، هو إقامة «نصب الأمهات»، إنّهنّ بطلات فوق العادة، فوق «أبطال» الحرب وأمرائها، بطلات من دون «نياشين»، من دون غزوات مجيدة وانتصارات فارغة، بطلات كلّ يوم، كلّ لحظة، كلّ نسمة، كلّ همسة، كلّ حضن ودفء.

الوقت الملائم للحرب

يختلف الوقت في زمن الحرب عمّا قبله من أيام السلم. الوقت «السلمي» منظَّم، مؤطَّر، موزَّع بين عناوين ومواقيت، هي في الواقع مهمات: حياتي فيها كالساعة، دقيقة ومفصّلة. حياتي هي وقتي. وقتي هو المسافة التي أجتازها من أجل وقت آخر حيث أتوقع نتيجة قيامي بالمهمات التي يمليها عليّ. الوقت هو «الحبل الممدود» أمامي، الروزنامة التي تعطي للأيام والأسابيع معانيها. في مهمات الأمومة، كما هو الشأن في الجامعة التي كنت أدرس فيها، وفي العمل الحزبي، وفي الحب، وفي الصداقة، وحتى «العلاقات» الاجتماعية... ألبّي «المتطلبات»، بالجهد والانتباه، فيقصر «الخيط»، لتنتهي السنة، وتأتي سنة جديدة غيرها تمدّني بحبل آخر، وهكذا... الوقت في أيام السلم هو مثل الطريق التي تعبّدها كلّما مشيت فيها. إنّه وقت مطمئن، واعدٌ بأهداف محدّدة، ممكنة ومطلوبة.

في الحرب، يتغير الوقت. يجري مثل النهر المجنون، يفيض أو يجفّ، من دون قانون. يتوقف، يشرد، أو ينطلق بعجلة الصاروخ. يتعطل، يموت، ليعود فجأة وكأنّ مسًّا أصابه، فتتدحرج صخوره فوق رؤوسنا على نحوٍ لا نعرف كيف نحتمي منها. وتدبّ الفوضى في الوقت؛ تارةً يكون متسارعًا، وتارةً أخرى يكون بطيئًا. الوقت متناقض وضائع بنفسه. خُذ انقطاع المياه مثلًا: في عزّ الحرب، وأنا

مُنشغلة بالتحضير لأطروحتي حول أكثر الموضوعات والنظريات جديةً وصعوبةً، أحتاج إلى كلّ ذرّة من دماغي كي أفهم ما أقرأ، أستوعب وأسجل... وحينئذٍ تنهمر الصواريخ، فأركض بابني إلى زاوية آمنة، أو ملجأ. أو خُذ مثلًا آخر تكون فيه المياه منقطعةً تمامًا، وأنا وسط نشاطي الأكاديمي المحموم أترقّب صوت الحنَفية في خزان العلّية، وقد هدرت بمائها... فأضع «الدكتوراه» كلّها جانبًا، لأملأ «الجاطات» والسطول والغالونات بالمياه. لعل ذلك يغنيني عن شحّ يدوم أحيانًا أسبوعًا بكامله.

يتوقف الوقت تمامًا عندما تصيبك الحرب مباشرةً بأسهمها. بعد تهجيري من الضاحية، أو اختطاف زوجي أو ابني، لا يعود ثمة وقتٌ، بل يتبخّر. تصبح أيامي ولياليّ مِثلَ وصلات متتالية من الخوف والبحث والسؤال والانتظار. حينئذٍ، يتحوّل الوقت، حتى وهو ميت، إلى غولٍ كونيّ. فكأنّ الوقت لم يكتفِ بـ «موت» الوقت؛ يريد التمثيل بجثته، فيمعن في ضياعي. وأبقى هكذا... لاهثةً، قلقةً، فزعةً؛ حتى نجد بيتًا موقتًا، أو يتحرّر ابني أو زوجي من الخطف...

إلا أن الأمر الأصعب من ذلك كلّه، هو أنّ الوقت لم يعُد مشتركًا. صحيح أنّ أوقات الصباح الباكر هي، إجمالًا، وقتٌ حرّ، يتحوّل فيه إلى ما يشبه باحة المدرسة التي يتحرر التلامذة فيها من الدروس ساعةً أو نصف الساعة، فيلهون ويلعبون. هكذا هي تلك الأوقات، التي نقول لأنفسنا في أثنائها إنّ الحرب عُلِّقت فيها لمدة ساعة أو ساعتين، ويمكننا في أثنائها أن نوحّد أوقاتنا، فنلتقي الأحبة والأصدقاء. خارج هذه الفواصل التي نستمد منها القوة اللازمة للتعامل مع انهيار الوقت، تتشظى الأوقات إلى مئات من القطع المستقلة، الفردية، والخاصة. عندها، يصبح لكل «وحدة»

عائلية، أو حزبية، أو اجتماعية... وقتها الخاص الذي لا يستطيع أن ينتظم داخل مجموعة؛ لأنّ الفوضى ضاربة فيه. لا يعرف ذاك المواطن «الشقي» متى يركض إلى الملجأ، ومتى يعود إلى الحالة «المدنية». كلّ شخص «غاطسٌ» في وقته المباشر. وهذا الوقت ليس ممتلئًا من المعاني نفسها، في أغلب الحالات. تختزن الاشتباكات بين التنظيمات المتحالفة والجارية في وسط بيوتنا، وقتنا كله؛ إذ لا نعود نشعر بغيرها أو نعلم بها. نسمع هديرًا بعيدًا عن معارك أخرى، عن مجازر أو مفاوضات أو مناورات، لكنّ وقتنا لا يتّسع للاهتمام بتفصيلاتها ولا بما كان عامًّا منها. في هذه الحرب، تجري على هذه البقعة من الأرض حروب عدة، لا حرب واحدة. ولكل حرب وقتها، ومضمونها، ومعناها، يندر أن تلتقي في عقل واحد؛ ذلك لأنها منقسمة، ولأنّ الانقسام ولّاد أوقات متنافرة، منغلقة على نفسها، قائمة بذاتها.

عندما اندلعت الحرب، كان عمري اثنتين وعشرين سنةً. وأصبح عمري في نهايتها ثمانيةً وثلاثين سنةً. في البداية، وأنا خارجة من المراهقة، أقول لنفسي - أنا التي لا تحبّ أن تنام حتى لا يضيع وقتها - ها أنا أضيّع وقتًا كثيرًا في يوميات هذه الحرب. لا أتحسّر كثيرًا. أقول لنفسي، لا بأس، ما زال العمر أمامي طويلًا جدًّا، خصوصًا أنّني لن أموت في هذه الحرب. ربما أتكبّد خسارة الوقت. مع ذلك، بوسعي تعويض ذلك ما دام العمر أمامي طويلًا... لكن عندما أنتبه إلى نفسي وإلى عمري الراهن، في نهاية الحرب، أُصاب بالهلع. «ماذا فعلتُ بحياتي؟ ماذا فعلوا بحياتي، بشبابي؟ ستّ عشرة سنةً أمضيتها في أنواع الأوقات كلها، ولم أُفلح في شيء». أشرع في التساؤل، كم من الأعمار التي خسرت في أوقات الحرب بالنسبة إلى

الذين وُلدوا في بدايتها، أو كانوا مراهقين، أو شبابًا، أو راشدين، أو شيوخًا..؟

الأرجح أنّه لم يكن لي أن أطرح على نفسي تلك التساؤلات، لولا رحلاتي المنتظمة إلى باريس من أجل متابعة أعمال أطروحتي مع أستاذي. أول ما أدخل المطار الفرنسي، وبعده، و في أثناء تنقّلي بين الشوارع الباريسية بحثًا عن عنوان المقر الإداري للجامعة، أو عندما أسافر في القطار لمقابلة أستاذي الأول، في مدينة مونوبولي الفرنسية، وحتى عندما أتنزه هكذا، من دون هدف على ضفاف نهر السين... يجتاحني شعور بالغرابة التامة. نحن الآن في بداية الثمانينيات، ولم يمضِ على الحرب سوى ستّ سنوات. ربما كانت الأعنف؛ لأنّها حرب جديدة. ومع ذلك أستغرب الوقتَ الفرنسي. فكأنني استبطنت في داخلي فوضى أوقاتي في الحرب. صرت أجد أنّه ليس من الطبيعي أن يمشي الناس في الشارع، ويأكلوا، ويعملوا، ويتنزّهوا، وأنّه ليس من الطبيعي، أيضًا، أن أغار من الفرنسيين، أو أقول في نفسي إنّهم يسبقوننا سنواتٍ ضوئيةً، وإنّ الحرب جاءت لتؤخّرنا أكثر فأكثر عن وقتهم المثالي. صحيح أنّ الوقت الفرنسي يضيق بي. إنّه مؤطّر ومنظّم. أمّا الحرب، فعوّدتني «الوقت الضائع»؛ ولذلك «أخذت راحتي» مع هذا النوع من الوقت. هو وقت ضائع وأنا ما زلت شابةً، غير أنني لا أطيق ذلك الوقت الفرنسي إلّا في أوقات معينة. عندما يأتي خبر من الحرب عن حادثة أمنية قد تمسّني، أو تمسّ أقربائي، يتبدّد الوقت الفرنسي حينئذٍ، ويسيطر عليّ وقت الحرب، وعندها لا أتنزّه، ولا أناقش أستاذي، ولا آكل... إن لم أطمئن على الجميع في ساعتها؛ عندما أخرج من وقتي الحربي إلى الوقت الفرنسي المنظم المقسم، أقول إنّ قيوده مثل قيود المحبّين؛

فهي تطمئن المرء، وتُنسيه وقته الواقعي، المشحون بالبارود والرطوبة.

في فرنسا نفسها، أستطيع أن أتخيل وقتنا، أن أصفه - بناءً على مقارنة - بوقت آخر. إنّه وقت مستقلّ عن زمانه، مُغلق على نفسه، يتأثر بالأوقات الخارجية الأخرى... لكنّه لا يؤثّر فيها، فيسهل عليه الانغلاق. تلك القلعة المحصّنة المعزولة عن نبض العالم، بوسعها أن تفعل بوقتها ما تشاء، ما دامت شظاياها لن تنال ممّن في خارجها.

يداهمني أحيانًا الحنين إلى الحرب، ويفاجئني. فأنا أكره الحنين، وأكره الحرب. لماذا إذًا...؟ أبحث في سريرتي عن دواعي الأمرين. فالحنين ليس إلى النار والقذائف، أو رائحة الدم والبارود، أو النفايات المحروقة. إنّه حنين إلى ما كنتُ عليه شخصيًّا؛ إلى الكيفية التي كنتُ أشعر من خلالها بالحياة من حولي، والكيفية التي كنتُ فيها مفعمةً بأمل واحد كبير: أن تنتهي الحرب، فيعود لبنان كما كان قبلها، هكذا... «أوتوماتيكيًا»، وتحضر صور من لبنان قبل الحرب، لبنان العذوبة والجمال. هذا الأمل الكبير كان مضيعةً للوقت.. أقول لنفسي الآن: ماذا لو لم يعد لبنان كما كان، أو لم تكن العودة إلى ما كان عليه ممكنةً؟

الحنين إلى الحرب، إلى ما كنتُ عليه من أملٍ وقت الحرب، هو حنينٌ إلى ذلك الشعور الرائع بأنني كنت شابةً، وأنّ الوقت أمامي... حتى لو لم يكن الأمر كذلك في الواقع، في أثناء الحرب أو بعد انتهائها.

أحلم الآن بالبلاد التي لا وقت فيها. ربّما كانت الجنة كذلك.

فهرس عام

-خ-

-ن-

هذا الكتاب

بعد اثنين وأربعين عامًا على الحرب الأهلية اللبنانية (1975) وسبعة وعشرين عامًا على توقفها (١٩٩٠)، تسأل مؤلفة هذا الكتاب: ما الذي أوصلها "إلى هنا"؟ وإلى "هذا"؟ مثلها مثل جميع اللبنانيين، وجميع أبناء الدول العربية التي حصل فيها مثلما حصل في لبنان من قتل وتدمير.
تحاول المؤلفة تقديم فصل، هامشي ربما، من فصول الحرب الأهلية اللبنانية، أوثق أيادي الآهلين وقادهم إلى حيث هم الآن، فكان هناك وصف لتجربتها الشخصية في دفتر، وحكايات ويوميات وتفصيلات صغيرة في دفاتر أخرى، وفي كل دفتر تترك للقارئ ترف الذهاب بعيدًا في تخيّل الدينامية الوجودية التي تطلقها حكايته على مصير أصحابها أو شخصياتها.

دلال البزري

كاتبة وباحثة لبنانية، تحمل شهادة الدكتوراه في العلوم الاجتماعية، مستشارة في مؤسسة "الإسكوا" الدولية وعضو في لجنة تحكيم جائزتَين عربيتَين: جائزة الصحافة العربية، وجائزة العويس للعلوم الإنسانية. لها عدد من الكتب باللغتين العربية والفرنسية، منها: **مصر ضد مصر** و**مصر التي في خاطري** و**سنوات السعادة الثورية** و *L'ombre et son double; Parlementaires et Libanais.*



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

السعر: 8 دولارات

ISBN 978-614-445-143-4

